سلسلة
مدينة الحب
لا يسكنها العقلاء

أنت كل أشيائي الجميلة

أحمد آل حمدان

i_ahmedalhmdan

الطبعة العاشرة
١٤٤١هـ - ٢٠٢١م

كل تلك اللوحات التي في غرفتي، والتي تراقبني بفضول بينما أقرأ وأكتب، كل تلك الدمى التي حين أغادر الغرفة أسمعها من وراء الباب تحادث نفسها بصوت منخفض حتى لا أكشف سرها، كل أولئك القراء الذين كانوا دومًا إلى جانبي، والذين كلما قررت التوقف عن الكتابة، صرخوا بوجهي:

«لا تتوقف، حتى بعد أن تموت سنمرر لك قلمًا وورقة، لتواصل الكتابة وأنت في قبرك»

حتى الجنية التي عثرت عليها عندما كنت صغيرًا وقالت لا تخف خذني معك وسأعلمك أشياء كثيرة، وجدتي التي كلما ذهبت إلى قبرها وجدتها تنتظرني عنده وتقول:

- كنت أعرف بأنك ستأتي

وأنا أيضًا ..

جميعنا كنا نظن أن الحكاية انتهت عند ذلك الحد، وأنه لن يكون هناك جزء آخر من رواية مدينة الحب لا يسكنها العقلاء، لكن بينما كنت في معرض جدة الدولي للكتاب، إذ جاءت طفلة صغيرة، تحمل في يدها أوراق ..

هذه الرواية من تأليف:

أحمد آل حمدان

والفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة.

قبل أن يأخذوها منه، تركت له على الأرض ورقة حين التقطها قرأ:

في الغياب

أسألك بمن سخر كل هذا الجمال فيك،

أن تقاوم من أجلي كل محتل يريد امتلاكك،

سأعود يومًا أجر خلفي جيوش الشوق إليك،

لأعاقب كل من فكر يومًا في احتلالك.

وحين عادت إليه بعد ألف عام، همست له مبتسمة:

- من علمك الكتابة؟!

طوقها بين ذراعيه وقال:

- غيابك هو السبب

الباب الأول

«الكاتب»

لا تكن عاقلًا في حضرتها
فالمرأة لا تحب العقلاء

١

«لم أعد أحبك، لم أعد أشتاق إليك،

لا أريدك، لا أحن لك، لا أفكر فيك،

وغدًا أتذكرك عن طريق الخطأ

فأضحك كثيرًا بدلًا من البكاء عليك،

أتعلم ؟!

أنا أكرهك بشدة لأنك الوحيد الذي يعلم

بأني أكذب في كل ما كتبته إليك ..»

كانت هذه الكلمات مكتوبة على الصفحة الأولى من حزمة الأوراق التي قدمتها لي طفلة صغيرة أعتقد أنها لم تتجاوز السادسة من عمرها، بعد أن نجحت في التسلل كما فأر، من بين سيقان القراء المحتشدين حولي، لتوقيع رواية مدينة الحب لا يسكنها العقلاء، في معرض جدة الدولي للكتاب، لعام ١٤٣٩ هـ

انحنيت مبتسمًا:

- ما هذا يا صغيرتي؟

- أوراق

- أعرف - قلت ذلك وأنا أنظر مباشرة إليها - أقصد من أعطاها لكِ؟

أشارت الطفلة بإصبعها نحو مكان ما ونظرت، وعندما لم تجد الشخص الذي ناولها الأوراق، ارتسم على وجهها شيء يشبه الخوف:

- لقد ذهبت!

قالتها لي بعينين بريئتين تشبهان عيني أرنب مذعور، يحدق بخوف إلى كائن بشري من داخل القفص.

كانت الطفلة شديدة البياض كما لو أنها جاءت من بلادٍ لا تشرق فيها الشمس، لها عينان دقيقتان تشيان بذكاء، وتملك وجهًا حادًا يشبه وجه تمثال يوناني يقف في متحف للآثار، وكان لها شعر أسود

مصفف بعناية بالغة يُخيل لمن يراه أن رسامًا قام برسمه لها مستخدمًا فحمًا ومسطرة وفرشاة.

- من هي التي ذهبت يا صغيرتي؟!

قالت وهي شاردة الذهن:

- الفتاة.

****

كان هناك إحساس يشبه الشك، أخبرني بأني أعرف الشخص الذي كتب هذه الكلمات، فقد كان الخط مألوفًا في ذاكرتي، كما لو أني قد شاهدته في مكان ما.

ما اسمكِ يا صغيرة؟!

شابكت يديها خلف ظهرها، نظرت نحو الأرض ولم تجب!

لا أعلم لماذا شعرت في تلك اللحظة بالذات، أن الطفلة الصغيرة هذه تعرف شيئًا ما، بيد أنها لا تريد الإفصاح عنه، لذلك حاولت التقرب منها أكثر لتخبرني عما تخفيه.

****

ولأني لا أجيد التعامل مع الأطفال، ولم أكن أملك خطة متوفرة في ذلك الوقت، فقد فكرت في أن أخبرها عن اسمي أولًا، ثم أستدرجها في الكلام شيئًا فشيئًا حتى آخذ منها ما أريده من معلومات:

- أنا اسمي أحمد

- أعلم ثم قالت: «وأعلم عنك أشياء أخرى»

- حقًّا؟!

هزت رأسها بمكر وهي تبتسم مثل شيطانة صغيرة!

- مثل ماذا؟!

فتحت فمها لتجيب، لكنها أغلقته بسرعة كأنها تذكرت شيئًا ما، الأمر الذي جعلني أتأكد أكثر من أنها كانت تخفي عني أمرًا.

****

تظاهرت أمامها بالبرود حتى لا أشعرها بالخوف، ورحت أحاول التقرب منها:

- حسنًا لم تخبريني عن اسمك؟!

شابكت يديها مرة أخرى خلف ظهرها، ونظرت نحو الأرض دون إجابة.

لم أستسلم ورحت أجرب معها سؤالًا أقل صعوبة، بحيث يكون في مقدورها الإجابة عنه بنعم أو لا، أو تستطيع في أسوأ الأحوال أن تجيب عنه بحركة من رأسها دون أن تتكلم:

- هل تذهبين إلى المدرسة؟!

- حسنًا في أي صف؟!

- إنك ترتدين لباسًا جميلًا، هل والدتك من قامت باختياره لكِ؟!

ولأنها لم تعطِني إجابة واحدة، فقد شعرت بأني أريد أن أصرخ في وجهها مستخدمًا طريقة رجال المخابرات، عندما يقومون باستجواب شخص متهم يرفض التجاوب معهم، ولكني لم أفعل ذلك مع الطفلة الصغيرة، ليس لأني شخص لطيف، بل لأن الناس كانوا ينظرون نحوي.

****

جرت العادة أن توفر دار النشر للمؤلفين بعضَ أطباق الحلوى والتمر ودلال القهوة، لكي يحتسوها ريثما ينتهون من التوقيع على كتبهم، لذلك ألقيت نظرة سريعة حولي، أبحث عن رشوة أدسها في يد الطفلة الصغيرة كحلوى بالشوكولا مثلًا، فربما ينجح ذلك في دفعها للحديث معي.

- خذي حلوى الشوكولا اللذيذة هذه.

عندما أصبحت الحلوى في يدها، قامت بدسها في جيب بنطالها بسرعة، كأنها تخاف من طفل يرى تلك الحلوى، فيخطفها من يدها ويهرب بها بعيدًا.

- أخبريني الآن من أعطاكِ هذه الأوراق

وضعت إصبعها داخل فمها، ترددت قليلًا قبل أن تجيب، كما لو أنها فكرت في أني سآخذ منها قطعة الشوكولا لو أنها لم تخبرني بالحقيقة:

- إنها فتاة

- أعلم، لكن أخبريني أين هي؟!

أخرجت الطفلة الصغيرة من فمها إصبعًا مغطسًا باللعاب، وأشارت به إلى الأمام:

- كانت هناك، لكنها ذهبت!

****

أعرف أن الأطفال يخافونني في كثير من الأوقات، وربما يعود ذلك إلى منظر لحيتي الكثيفة والتي لم يزرها مقص الحلاق منذ زمن بعيد، أو أن خوفهم يعود إلى منظر شاربي الكثيف والذي تبرز منه أحيانًا وعلى غير انتباه مني، بعض حبات الشعر المتجهة نحو الأعلى، فتبدو من قريب كما لو أنها قرون استشعار لحشرات تختبئ أسفل شاربي، لذلك صنعت ابتسامة مزيفة في محاولة لتلطيف ملامح وجهي وقلت:

- حسنًا هل تعرفين من أي طريق ذهبت؟!

- لا، لقد ذهبت!

ثم قامت بحشر يدها في الجيب الخلفي لبنطالها، وأخرجت لي منه ورقة نقدية من فئة العشرة ريالات:

- خذها - مدّت الورقة النقدية باتجاهي - خذها إنها لك

لم أفهم في ذلك الوقت لماذا حاولت الطفلة الصغيرة إعطائي المال، ولم أفكر في الأمر كثيرًا:

- لا يا صغيرتي احتفظِي بها لنفسك.

٢

كيف أصبح كاتبًا

حسنًا، لقد تضاعف الشك في داخلي ..

يحدث أحيانًا أن يأتي بعض القراء المتحمسين، إلى معرض الكتاب، وهم يحملون في أياديهم شيئًا من كتاباتهم، يطلبون مني أو من مؤلفين آخرين قراءتها، وإعطاءهم رأيًا أدبيًّا فيها، إنهم يعتقدون أني كاتب محترف في مقدوره توجيه النقد لهم، أو إعطاؤهم بعض النصائح المفيدة التي قد تساعدهم في تحسين قدراتهم الكتابية.

لكن في الحقيقة ولسوء الحظ أنا لست كاتبًا، ولا أفهم كثيرًا في تقنيات الكتابة، ولا أميز الفرق بين الرواية والقصة، وأشعر بالحرج كثيرًا عندما أجلس بين مؤلفي دار النشر وهم يتناقشون فيما بينهم حول الأدباء والأدب، الأمر الذي يجعلني أحرك رأسي طوال الوقت متظاهرًا بالفهم، مثل تلميذ بليد يهز رأسه في حصة الرياضيات دون أن يفهم شيئًا من شرح الأستاذ!

في الواقع: أنا لست إلا بقايا رجل، يرسم بالكلمات على حيطان الذاكرة، ريثما تعود إليه فتاة رحلت وأظنها لن تعود!

****

بيد أنهم لا يصدقون كلامي، يعتقدون أني لا أقول ذلك إلا من باب التواضع، فأضطر مستسلمًا في النهاية إلى توجيه بعض النصائح لهم، والتي رغم اقتناعي بأنها صحيحة، إلا أني في ذات الوقت أعلم بأنها كانت ستضرهم كثيرًا لو أنهم استمعوا إليها!

أذكر أن أحد القراء سألني ذات مرة:

- كيف أصبح كاتبًا؟!

قلت بأن الطريقة الوحيدة التي قد تجعل منك كاتبًا هي:

«أن تقع في الحب أولًا، ثم تنتظر حتى يأخذ القدر منك ذلك الحب قهرًا، حينها فقط يصبح في مقدورك أن تكون كاتبًا.»

- إننا نكتب لنستعيد في الخيال شيئًا يستحيل علينا مواصلة الحياة بدونه.

ورغم أني كنت أعلم بأن كلامي لم يعجبه، إلا أنني واصلت الحديث:

- الجرح هو وقود الكاتب، لذلك يجب على الفتاة أن تحذر من حبيب كاتب، لأنه قد يهجرها يومًا وهو يحبها جدًّا، فقط ليستعين بجرحه على تأليف كتابٍ جديد!

قلت له: يجب على الكاتب أيضًا أن يحذر القصص التي يكتبها على أوراقه، لأنها قد تصبح حقيقة مع الأيام، فالقدر أحيانًا يتيح لأولئك الذين يحبون اختراع القصص، فرصة المشاركة في كتابة أقدارهم ..

قلت له أيضًا: بأن الشخص الذي ماتت جدته قبل أن تحكي له قصصها القديمة، لا يمكن له أن يكون كاتبًا، فقصص الجدات وحدها من في مقدورها أن تخلق منا كتّابًا ..

وكنت أريد أن أقول له أشياء أخرى، لكنني صمتّ، ليس لشيء عدا أن ذلك الشخص حمل نفسه وابتعد عني ..

****

لنعد إلى موضوع الطفلة:

الغريب هذه المرة، هو أن تلك الفتاة الكاتبة لم تقدم لي حزمة الأوراق بيدها مثلما جرت العادة، بل قامت بإرسالها مع طفلة صغيرة، وأعتقد أنها أمرت تلك الطفلة بعدم الإجابة عن أي سؤال قد أطرحه عليها، فقد كان الارتباك يظهر واضحًا، على ملامح الصغيرة كلما سألتها عن شيء ما.

وهناك شيء آخر كنت أشعر به في تلك اللحظة وأنا أقف أمام الطفلة وهو:

أن تلك الفتاة الكاتبة، كانت تراقبني من مكان ما، إني أشعر بأنفاسها، وبنظراتها وهي تتسلق وجهي، وأكاد أجزم بأن في مقدوري سماع نبضات قلبها المتصاعدة.

لم تكن كلماتها طويلة على الصفحة الأولى، لكنها كانت عميقة للحد الذي يجعلني متيقنًا من أن تلك الكلمات لم تُكتب إلا من أجلي، ومن أجلي فقط.

همس المحقق الصغير الذي بداخلي:

- هناك شيء غريب، يجب التحقق من هوية هذه الفتاة الكاتبة، إن في الأمر خدعة ..

- ما يقوله المحقق صحيح - قالت العجوز التي تسكنني - اقلب الصفحة دعنا نقرأ ما هو مكتوب.

****

قلبت على الصفحة الثانية وقرأت:

«يمضي علينا الوقت في غيابهم ثقيلًا،

نعلم أنهم فارقونا بنجاح،

وتجاوزونا إلى شخص آخر!

يقولون له كلامًا

قالوه لنا يومًا،

يقسمون له على البقاء

مثلما أقسموا لنا ذات مرة،

ورغم أننا نعلم جيدًا بأننا

لم نعد نمضي في خيالهم ولو للحظة،

إلا أننا نرفض تصديق ذلك وبشدة

حتى لا تبكي قلوبنا عليهم بحرقة طفلة ..

طفلة تبكي في زاوية الغرفة لأنهم

أخبروها بوفاة والدها

حين عادت ظهرًا من المدرسة!

في غيابك تعلمت أن كل شيء

يمكن اقترافه يا سيدي، إلا نسيانك!

أنت الشيء الوحيد الذي سيبقى في الذاكرة،

وأنت الشيء الوحيد الذي لن أكف عن حبه حتى

ولو كان بعيدًا،

بعيدًا جدًّا..»

صرخت العجوز وهتف المحقق في الوقت ذاته:

- إنها تتحداك!

تكلم الكاتب الذي يسكنني، وهو يدقق النظر في الكلمات بنظارته المثبتة على أرنبة أنفه:

- صحيح، إنها تجيد تقليدك، تكتب مثلك كما لو أنها سرقت قلمك!

****

- لا تتحركِي.

صرخت في وجه الطفلة الصغيرة، بعد أن وضعت حزمة الأوراق جانبًا ثم ركضت أفتش عن الفتاة الكاتبة ..

٣

«مدير الدار»

بدلًا من رائحة الكتب، كانت هناك رائحة عطر مألوفة تنتشر في أروقة المعرض، مثل فضيحة جميلة تتناقلها الجدات!

تبًّا نستهلك عمرًا حتى نعتاد غياب أحدهم، ثم تأتي رائحة عطر تعيدنا من جديد إلى نقطة البداية، ذلك أن العطر آلة تسافر بنا عبر الزمن، تعيدنا نحو ماضٍ جميل، نستغرق بعده عمرًا آخر، لنقنع أنفسنا بأن ذلك الماضي ذهب، ولن يعود مرة أخرى.

عقلي يلكزني مع كل خطوة أتقدم بها نحو الأمام:

- عد إلى مكانك لا تكن أحمق!

لكن قلبي يأمرني بالمواصلة:

- لا تصغ إلى هذا المعقد - ثم يصرخ مهتاجًا مثل رجل يمتطي ثور - واصل البحث لا تتوقف.

- تصف من بالمعقد

- تصف من بالمعقد - يردد قلبي هازئًا -

- كف عن ترديد ما أقول

- كف عن ترديد ما أقول - يردد قلبي هازئًا -

- توقفا عن ذلك فورًا - أصرخ عليهما غاضبًا - هذا ليس وقتًا للشجار.

ولأننا غالبًا ننصت إلى ما يقوله لنا القلب، ثم نندم لاحقًا على عدم الاستماع لنصائح العقل، واصلت البحث عن الفتاة الكاتبة.

في الحقيقة ليس جميلًا، أن يكون الإنسان عاقلًا، فالشخص العاقل يفوت على نفسه كثيرًا من المغامرات، كما أنه ليس جميلًا، أن يهرول الإنسان خلف قلبه، حتى لا يقع في كثير من الورطات، الرائع بحق هو: أن نغير ترتيب الأشياء قليلًا، أن نضع عقولنا خلف قلوبنا، أن نعيش الجنون لكن بعقل، هكذا تستمر الحياة.

****

«بعد أن مضت ٤٥ دقيقة»

أدركت أني لن أعثر على الفتاة الكاتبة، فعدت أدراجي خائبًا كمحارب عاد إلى قريته، بعد أن قتل له العدو في الحرب جميع أفراد العائلة والأصدقاء!

حين عدت لم أجد الطفلة في المكان الذي كنت قد أمرتها بأن لا تتحرك منه، كان كل شيء يسير بشكل طبيعي: المؤلفون يثرثرون حول دلال القهوة، الزوار يتصفحون أوراق الروايات، موظفو المبيعات يكذبون ببراعة مدروسة على القراء لتسويق الكتب، ومدير الدار ينطوي على نفسه في أحد الأركان يلعق إبهامه مثل هر، بينما يحصي في يده المال.

فتشت بعيني في المكان عن حزمة الأوراق التي أعطتني إياها الطفلة الصغيرة: أزحت بعض الكتب لأنظر تحتها، فتحت جميع الأدراج أسفل صندوق المحاسبة، سألت موظفي المبيعات فربما يكون أحدهم قد خبأها في مكان ما، لكنهم أكدوا لي أنهم لم يروا شيئًا، وأنهم لم يلمحوا طفلة، فبدا الأمر للحظات كما لو أنه حُلم انتهى بعد استيقاظ صاحبه من النوم.

****

تعلمنا من الحياة أن لا أحد يملك وقتًا للاستماع إلى همومنا الخاصة، وتعلمنا أيضًا أن نكتم ما في قلوبنا من أوجاع حتى لو أبدى أحدهم رغبة في الاستماع إليها، لذلك كلما سأل أحدهم عنا ابتسمنا له وقلنا كذبًا: نحن على خير ما يرام.

إلا أن هناك أشياء تحدث معنا، لا نستطيع إخفاءها لمدة طويلة، تلك الأحداث تشبه القنابل الموقوتة، يجب علينا إبطال مفعولها بالثرثرة وإلا انفجرت في قلوبنا، وحولتنا إلى أشلاء صغيرة!

لهذا كنت في حاجة إلى صديق رائع في ذلك الوقت، أستطيع إخباره بكل شيء، وأعلم جيدًا أنه بعد انتهائي من الحديث معه سيقوم بنسيان كل ما أخبرته به.

فالصديق الرائع هو: من ينسى كل أسرارك بعد أن تخبره بها، هو أول شخص تأتي صورته في ذهنك حين تشعر بأنك وقعت في ورطة، هو من يجيد فهمك دون الحاجة إلى الكثير من الشرح، هو من تغيب عنه وحين تعود لا يعاتبك على اختفائك لأنه يتفهم حاجتك للوحدة والعزلة، هو من لا يتجرأ أحدهم على الحديث عنك بسوء أمامه، هو من في مقدورك أن تعاتبه لذنب اقترفه شخص آخر غيره دون أن يتحسس من غضبك عليه، لأنه ببساطة هكذا يكون الصديق الرائع.

****

ولأني لم أكن أملك صديقًا رائعًا في ذلك الوقت، دفعت بجسدي نحو بوابة الخروج، لأستنشق بعض الهواء في ساحة المعرض الخارجية، وما كدت أبتعد بضع خطوات عن موقع الدار، حتى جاءني ذلك الصوت الكئيب:

- أين اختفيت لقد سأل عنك بعض القراء.

كان مدير الدار يسألني وعلى وجهه ابتسامة يداري بها غضبًا.

كنت أعلم سبب غضبه جيدًا: هو لا يهتم بسؤال القراء، بل بتلك النقود الورقية التي ستتحول من جيوبهم، إلى خزينة الدار مقابل شرائهم مزيدًا من نسخ الرواية الموقعة.

هذا ليس من شأنك: هذا ما كنت أستعد لقوله، لولا أني تذكرت في اللحظة الأخيرة فارق السن الذي بيننا فالتزمت الصمت احترامًا.

حسنًا أنا أكذب:

في الحقيقة لم يكن فارق السن هو ما دفعني إلى احترامه وعدم قول ذلك في وجهه، بل تذكرت في اللحظة الأخيرة، عقد الاتفاق الذي بيننا، والذي يتيح له التحكم في مصير مؤلفاتي وكتبي لمدة عشر سنوات قادمة.

«يكون الطرف الأول - الناشر - هو المسؤول عن جميع أعمال الكاتب، ولا يحق للكاتب نشر أعماله الأدبية لدى أي دار نشر أخرى حتى تنتهي مدة صلاحية هذا العقد».

كانت هذه إحدى الفقرات المبرمة في عقد الاتفاق، والذي لا أعلم أي شياطين أقنعتني في ذلك الوقت بالتوقيع عليه، لهذا لن يكون من مصلحتي أبدًا إفساد علاقتي بمدير الدار.

اعتذرت منه لغيابي المفاجئ باحترام مبالغ به، ثم أخبرته بلطف أني سأنسحب قليلًا إلى الخارج، لأني في حاجة لاستنشاق بعض الهواء، ووعدته بالعودة في أسرع وقت لإكمال التوقيع على بقية نسخ الرواية.

هز رأسه موافقًا وهو غير مقتنع بانسحابي، كما لو أنه رجل مرور يبتسم لسائق متهور، بينما ينوي أن يحرر له مخالفة.

مضغت ريقًا من الخوف، وقبل انسحابي من أمامه، وضع يده على جبينه:

- أوه لحظة لا تذهب كدت أنسى!

«هناك شيء من أجلك» هذا ما قاله مدير الدار وهو يهرول مبتعدًا...

٤

«الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات»

حين عاد مدير الدار، كان يحمل بين يديه حزمة الأوراق:

- جاءت بها طفلة صغيرة في غيابك، وطلبت مني تسليمها لك.

ثم حشر يده في جيب بنطاله الجينز، والذي لم أره في حياتي يرتدي غيره:

- اللعنة أين اختفت - قال مدير الدار ذلك وهو يفتش في جيبه عن شيء ما - تبًّا أذكر أني وضعتها في هذا الجيب!

وعندما فتش في جميع جيوبه ولم يعثر على ذلك الشيء، استنتج أن ما كان يبحث عنه ربما قد يكون سقط من الداخل، ذلك أن جميع جيوب بنطاله كانت ممزقة البطانة على حد قوله:

- دائمًا يغيب هذا الأمر عن بالي، لقد أضعت أشياء كثيرة بسبب هذه الجيوب الممزقة.

- هل الشيء الذي تبحث عنه يخصني؟!

- لحظة سترى.

ثم فجأة نظر يمينًا وشمالًا، كما لو أنه يريد أن يفعل شيئًا دون ان ينتبه عليه أحد:

- ماذا تريد أن تفعل؟!

- سأجلبها لك - قال -

لم أكن واثقًا مما كان يريد أن يفعل عندما قال «سأجلبها لك»، لكني لم أصدق عيني، حين رأيته يفك إبزيم حزامه بسرعة، ويلقي نظرة مطولة على أعضائه المخبأة تحت بنطاله، يفتش بينها عن ذلك الشيء الذي سقط منه:

- وجدتها - صرخ -

****

ثم مد يده عميقًا ليأخذ ما كان يبحث عنه:

- انظر - قال ذلك وهو يمد في الهواء ورقة نقدية من فئة العشرة ريالات - لقد أعطتني الطفلة الصغيرة قبل أن ترحل هذه الورقة النقدية، وطلبت مني أيضًا أن أعطيها لك.

نظرت من مكاني وباشمئزاز واضح، في تلك العشرة ريالات والتي بدت من بعيد كما لو أنها تطلب النجدة لبقائها فترة طويلة في ذلك المكان الملوث، ثم ولأني لا أريد أن أصاب بمرض جلدي خطير قلت له:

- لا أريدها تستطيع أن تحتفظ بها لنفسك.

****

- يبدو أن الأمر مهم - قال مدير الدار -

- أي أمر تقصد؟

- أقصد الأوراق.

- ما الذي يجعلك تقول هذا؟!

- لأن الطفلة الصغيرة عادت أكثر من مرة لتتأكد من أني سأعطيك حزمة الأوراق هذه، وفي المرة الأخيرة جاءت برفقة فتاة أظن أنها أمها، ولم تغادر إلا عندما جعلتني أقسم ثلاث مرات على أني لن أنسى أمر إ

قاطعت كلامه مندفعًا:

- هل تستطيع أن تصف لي تلك الفتاة التي كانت برفقة الطفلة الصغيرة؟!

- لا أتذكر ملامحها - ثم قال - لأني لم أنظر إليها!

****

كنت أعلم جيدًا بأن لمدير الدار عينًا طويلة، لا ينتزعها عادة من وجه أي فتاة، لذلك سألته عن السبب الذي من أجله لم ينظر إلى تلك الفتاة التي جاءت برفقة الطفلة :

– لماذا لم تنظر إليها، أقصد لماذا لم تنظر إلى الفتاة التي جاءت برفقة الطفلة الصغيرة؟!

كنت أتوقع منه أي إجابة، لكنني لم أتوقع أبدًا أن يقول:

– لقد كانت [illegible]، للحد الذي جعلني أخجل من النظر إليها!

ساحر الكتب

٥

«الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة»

بعد خمس دقائق:

ينظر [illegible] نحوي بفضول، إنه يريد معرفة قصة حزمة الأور[illegible] لا يعرف كيف يستدرجني للإجابة عما يدور [illegible]دو أمامي متطفلًا:

ساحر الكتب

- ما قصة هذه الأوراق - سألني ببرود -

ولأننا حين نخبر أحدهم بسر، فإننا بذلك نكون قد أهديناه رصاصة ربما يقتلنا بها يومًا، لهذا يجب علينا أن نكون أكثر حرصًا في انتقاء الأشخاص الذين نكشف لهم عن أسرارنا:

- لا توجد قصة - ثم قلت لكي أقنعه أكثر - يبدو أن تلك الفتاة تريد نقدًا أدبيًا على كتاباتها، لذلك هي مهتمة بتسليمي حزمة الأوراق هذه.

لم تنطل تلك الحيلة عليه، لكنه تظاهر بأنه ابتلع الطعم، هز رأس
مثل ثعلب:

- هذا ما كنت أعتقده أنا أيضًا!

****

لم يعد في إمكاني التفكير، لدي أسئلة أريد الإجابة عنها:

١ - من هي الطفلة الصغيرة، وأي لعبة شيطانية تمارسها ضدي؟!

٢ - من ... جاءت لاحقًا برفقتها؟!

٣ - من هي ...

والسؤال الأهم هو:

٤ - هل الفتاة التي جاءت برفقة الطفلة الصغيرة، والفتاة الكائنة والفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة هم شخص واحد؟!

ساحر الكتب

صرخت العجوز في داخلي وهي تلكزني بعصاها:

- هيه أنت توقف عن طرح مزيد من الأسئلة أيها الأحمق، اقلب الصفحة ودعنا نقرأ ما في يدك!

****

فتحت الصفحة الثالثة وقرأت:

«افترقنا

ساحر الكتب

أ

أهمس باسمك للفقراء

حين أدس في يدهم صدقة

أطلب منهم الدعاء لك بدلًا من دعائهم لي

أطيل النظر في عيونهم الحزينة

فأراك في عيونهم تقف

تمد لي يدًا وتصرخ:

«أريدكِ»

هل تعرف ما هو الحب؟!

هو أن تعمل جاهدًا كي تلتقي بمن تحب في الجنة

هو أن تدعو لمن تحب أكثر من دعائك لنفسك.

أتعلم؟!

ساحر الكتب

ما زل... حمراء،

تلك التي ا... ي عندما جئت لتخطبني!

وأدس لنفسي في كل ليلة

أسفل وسادتي وردة

لتخبرني بصوت مختنق

ينبعث بعد نومي من أسفل الوسادة:

«بأنك تحبني، وبأني لا أزال كل أشيائك الجميلة»

بالمناسبة :

هل تعلم لماذا ذبلت تلك الورود الحمراء؟!

ليس لأن الموت سرق منها الحياة

بل لأننا افترقنا ولم نعد معًا.»

٦

- يا إلهي إنها هي

- من هي - سألني مدير الدار، وحين طال صمتي ولم أجب، أعاد السؤال مرة أخرى:

- من هي ؟!

ساحر الكتب

- ل

وابتعد

****

- إنها الفتاة - هذا ما كنت أهذي به بينما أبحث في الشارع عن سيارة أجرة - إنها حتمًا الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة، لا بد أنها قرأت الرسالة.

أخيرًا ارتميت مثل قتيل في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وانسحبت عائدًا نحو الفندق، مثل دودة عادت إلى مخبئها حين استشعرت خطرًا ما يقترب منها.

كنت أفكر بينما كان السائق يسير بي نحو الفندق:

«هل يعقل أنها تزوجت؟! هل تكون تلك الطفلة الصغيرة ابنتها؟!»

ثم صرخت فجأة:

- لا لا مستحيل لن تتزوج، لقد اتفقنا!

مد سائق الأجرة يده، حرك بها المرآة الأمامية المتدلية من السقف، بحيث يصبح في مقدوره رؤيتي من خلالها:

- هل هناك خطب ما؟!

انتبهت إلى شدة انفعالي:

- لا، آسف - أخذت نفسًا عميقًا - واصل السير من فضلك.

ثم وفي تلك اللحظة التفت نحوي رأس الطفلة الصغيرة من المقعد الأمامي:

- هذا أنتِ مجددًا؟!

هزت رأسها دون أن تتكلم

- من تكونين - صرخت بأعلى صوتي - هل الفتاة التي أعطتك هذه الأوراق أمك؟!

لوت شفتها السفلية وهزت رأسها بطريقة لم أعلم إن كانت تقصد أن تقول بها نعم أم لا، ثم سحبت رأسها وجلست معتدلة في كرسيها.

اندفعت من الخلف نحوها: هل الفتاة الكاتبة أمك أم لا؟!

لكنها لم تجبني، لأنها اختفت!

توقفت سيارة الأجرة جانبًا:

- هل هناك مشكلة يا سيد؟!

- الطفلة - قلت -

- أي طفلة؟!

- الطفلة الصغيرة، التي .. أقصد لقد كانت تجلس هنا طفلة صغيرة هل رأيتها؟!

- لم يكن يجلس هنا أحد

- لقد رأيتها، لقد كانت تجلس هنا منذ قليل

- كف عن الصراخ - قال سائق الأجرة بغضب - لم يجلس هنا أحد منذ اللحظة التي صعدت فيها معي!

ثم أشعل الأضواء الداخلية للسيارة:

- انظر بعينك لا أحد يجلس هنا غيرنا

جعلت أنظر في جميع مقاعد السيارة، كما لو أني طفل عنيد لا يصدق شيئًا حتى يتحقق بنفسه:

- حسنًا تبدو محقًّا، واصل السير من فضلك.

****

وحين طال الوقت ولم تتحرك سيارة الأجرة من مكانها قلت مستفهمًا:

- ما بك لماذا لا تواصل السير؟

- أعتذر منك - قال سائق الأجرة - لا أستطيع إيصالك!

- لكن ..

- أرجوك انزل من سيارتي - ثم أضاف - وسأعيد لك كامل الأجرة المدفوعة.

كانت نبرة صوته مرتبكة وصارمة في الوقت نفسه، وعرفت من خلالها أني لن أستطيع إقناعه بأني شخص سليم، لا يعاني من شيء في عقله، لذلك فتحت الباب الخلفي لسيارة الأجرة، وهبطت منها وأنا أتمتم بصوت نادم:

- لكني متأكد من أني رأيتها.

الباب الثاني

«رسائل الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة»

لا تدع وجهي المبتسم يخدعك،

كل شيء في داخلي آخذ بالانهيار!

١

أهلًا،

اشتقت إليك،

يا من لا يشفع لغيابه شيء حتى الموت،

هذه أنا: حُلمك الغائب،

كيف أنت؟!

أتمنى أن تكون بخير ..

****

الاثنين،

٤:٥٧ مساء،

«في المكتبة»

لم أكن حينها أفكر بشيء إلا بك كعادتي، عندما كنت أتجول وحيدة في أروقة إحدى المكتبات، أفتش عن كتاب جيد يشعرني بالأمان في هذه الغربة.

لا.. لم أغادر البلاد، لكن ثمة وطن كبير غادرني فأنت لم تكن لي حبيبًا وفقط، بل كنت وطنًا كبيرًا ينتمي عالمي الأعظم إلى خلايا ضلعه الأعوج.

****

قبل أن نفترق لم أكن أحب القراءة أتذكر؟!

لكني أصبحت أحبها كثيرًا، لأنها الشيء الوحيد الذي بات يذكر بك، والمكان السري الذي أستطيع أن أقابلك فيه، والزمان العكسي الذي يعيدني إليك، كم من المرات التقيتك في حكايا السندباد، وحلقت معك عاليًا برفقة بيتر بان، وراقصتك في ساحات الغجر، أمام كنائس أحدب نوتردام، وانحنت لنا جميع أميرات ديزني، حين زفتني إليك الحياة!

****

في تلك الأيام:

كنت أقف حائرة حين أراك تحادث أحد الكتب، كما لو أن في مقدور ذلك الكتاب فعلًا أن يسمع ما تقوله، وكنت أشعر بالحيرة أكثر عندما أراك تصمت مطولًا وأنت تنظر إلى الكتاب وتهز رأسك بلطف، كما لو أن ذلك الكتاب يقول لك شيئًا ليس في مقدور أحد أن يسمعه غيرك.

- الكتب هم أصدقائي العقلاء، في هذا العالم المجنون!

كُنت أنظر إليك ببلاهة وأقول لك بأني لا أفهم ما تقوله ..

فاتبتسم لي بهدوء، وتعيد تثبيت النظارة على أرنبة أنفك:

- الكتاب عقل يفكر، لذلك حين أنتهي من قراءة كتاب جيد، أحب التحدث إليه.

****

ولأنك كنت تقرأ كثيرًا، فقد كان كلامك رائعًا، ولأني لم أكن اقرأ، فقد كنت دائمًا أقف أمام كلماتك مشلولة وصامتة، مثل فرخ بط فقس للتو من البيضة، وشاهد أمه تسبح بعيدًا، هو يريد الذهاب إليها لكنه لا يفعل لأنه لم يتعلم بعد كيف يسبح في البحيرة.

ورغم علمك بأني حينها لم أكن مهتمة بالثقافة، إلا أنك كنت دومًا تمطرني بمحاضرات أدبية، في الشعر والرواية والفلسفة، تلك المحاضرات التي لم تكن تلقيها أمامي، إلا لأنك لم تكن حينها تملك جمهورًا يصغي إلى ثرثراتك!

قلت لي مرة بأن الجميع في مقدورهم اليوم أن يكونوا شعراء، فالشعر على حد قولك بات كلامًا ليس له معنى، يقوله شخص مشهور فيصفق الجمهور وراءه مجاملة!

أعترف لك بأني لم أكن أفهم حرفًا واحدًا من تلك المحاضرات، لكني كنت أصغي إليها جيدًا، ذلك أن الأنثى تجد متعتها في الاستماع إلى أي هراء يقوله رجل تحبه.

****

أحيانًا يكون اختيار الكتاب المناسب للقراءة، أمرًا مرهقًا ومعقدًا، إنه يشبه تلك الحيرة التي تصيب فتاة أنيقة، تريد اختيار فستان رائع لمناسبة مهمة.

لكنك علمتني أن الكتب هي من تختار قراءها، وليس العكس مثلما يعتقد الناس:

- الكتب مخلوقات حية تتنفس، إنها تحتفظ بأرواح مؤلفيها، جربي أن تقفي أمام الرف بهدوء، تأمليها كما لو أنكِ تراقبين وردة تتفتح، حين يشعر كتاب ما بالأمان نحوكِ، سيطلب منكِ أن تأخذيه.

قلت لي أيضًا بأن لا أعتمد في قراءتي على الكتب التي يوصي بها القراء الآخرون، وحين سألتك عن السبب، قلت:

- الكتب تشبه الدواء، والدواء الذي ينجح مع غيرك، ليس بالضرورة أن ينجح معك، لذلك اقرئي فقط ما يناسب عقلك!

- دواء ؟! - رددت باستفهام -

- نعم فالقراءة تُصلح ما تفسده فيك الحياة!

****

إنه أمر مختلف، حين تقع في حب شخص يحب القراءة والكتابة أكثر من أي شيء آخر، هو شيء رائع لكنه مرهق، فأنت تتعامل مع شخص يؤمن بالقصص أكثر من إيمانه بالحقائق، إنه يفسر لك أكثر الأشياء تعقيدًا كما لو أنه يروي لك حكاية قديمة، هو دائمًا يجد الأجوبة المناسبة لأكثر الأسئلة صعوبة، ليس لأنه شخص مثقف فقط، بل لأنه يثق بالخيال أكثر من ثقته بالعلم والمعرفة.

أذكر أنك سألتني ذات مرة: لماذا السمك لا يصدر أصواتًا مثل بقية الحيوانات؟!

فكرت آنذاك طويلًا لكني لم أتوصل إلى إجابة مقنعة، فقلت لك: لا أعرف!

أجبتني: لأن البحر يسرق من الأسماك قدرتها على الكلام!

سألتك خائفة: ولماذا يفعل البحر شيئًا فظيعًا كهذا؟!

كنت واثقًا من إجابتك، كما لو أنك قرأتها في مجلة للأبحاث العلمية حين قلت:

«كي يضمن أنها لن تفضح أسراره حين تقع في شباك الصياد»

٢

«الكتاب الأسود»

الاثنين،

١٣:٥ مساء،

لا أزال في المكتبة،

مثل فتاة أوربية حسناء تجلس على حافة الكرسي أمام إحدى الطاولات، تتظاهر بالبراءة بينما تنتظر شابًّا وسيمًا يمد لها يده، يطلب مراقصتها في الاحتفال، هكذا كنت أقف في رواق المكتبة كما علمتني، أتأمل بهدوء تلك الكتب المتراصفة، أنتظر كتابًا فوق الرف يغازلني بتحضر، يغويني بلباقة، يمسكني من خاصرتي بيديه الورقيتين يهمس لي في أذني:

- اقرئيني يا سيدتي.

على أحد الرفوف البعيدة في المكتبة، كان هناك كتاب يغمز لي، كطفلة تعلمت للتو كيف تغمز، وكان يقفز في مكانه بحماسة ضفدع لمح ضفدعة تكشف عن نهديها في موسم التزاوج.

كان لون الغلاف أسود وكان عنوانه مكتوبًا باللون الأبيض والأحمر، بيد أني لم أتمكن من قراءة العنوان بسبب المسافة الفاصلة.

كنت في طريقي للاقتراب منه، لكني توقفت حين لمحت من بعيد صورة شاب عابس يقف في منتصف الغلاف.

فقد تذكرت أنك قلت لي في إحدى محاضراتك الأدبية تلك، بأنك لا تؤمن بالمؤلفين الذين يضعون صورهم على أغلفة كتبهم، وحين سألتك لماذا قلت لي متذمرًا:

- هم مؤلفون، وليسوا عارضي أزياء في مجلة هابطة!

ثم قلت لي بأن أغلب المؤلفين لا يضعون صورهم على أغلفة كتبهم إلا بحثًا عن الشهرة، وحين سألتك ما العيب في ذلك قلت:

- الكاتب الحقيقي هو إنسان كهف، الشمس تفقده القدرة على الكتابة!

ثم قلت موضحًا كلامك:

- لاحظي المؤلفين الجدد، إنهم يحسنون الكتابة في عملهم الأول، لأنهم لم يكونوا مشهورين أصلًا، ثم حين يبدأ الناس لاحقًا في التعرف عليهم، وتتجه الأضواء نحوهم، تصبح كتبهم التالية رديئة، لا يصلح ورقها حتى أن يكون سفرة لطعام العشاء.

صمت قليلًا أفكر في كلامك ثم قلت:

- لا أدري ولكن، لم تقنعني هذه المرة، أشعر بأنك تبالغ.

حين قلت لك ذلك، شعرت بأنفاسك في سماعة الهاتف تزداد حدة، وبدأت أسمع فرقعة أصابع يديك، مثل ثور يحك حافره بالأرض استعدادًا للهجوم على شخص يلوح له بقماشة حمراء.

ولأني أعلم بأن دماء الشرق جميعها تصب في قلبك، مضغت شجاعتي، وسحبت ما قلته لك على عجل، حتى لا تحظى أيام خطوبتنا بمزيد من أيام الزعل:

- معك حق، أتفق معك، الكاتب الحقيقي هو إنسان كهف، والشمس تفقده القدرة على الكتابة!

ثم وحتى أصالحك أكثر وعدتك حينها بأني لن أقرأ في حياتي كتابًا يضع المؤلف فيه صورته على غلافه، ومن أجل هذا الوعد تجاهلت أمر ذلك الكتاب الأسود، ورحت أفتش عن كتاب آخر غيره.

على رفوف المكتبة :

كان هناك كتاب يشعر بالضجر، وكتاب يحاول إقناع أحد القراء بأن يأخذه، وآخر يعاني بعض الرضوض لأن شخصًا متهورًا أسقطه، وكتاب يغط في نوم عميق لكنه يستيقظ فزعًا لأن كتابًا آخر يلكزه: «كف عن الشخير»

وحده ذلك الكتاب ذو الغلاف الأسود هو من كان يلوح لي ويصرخ من بعيد رافعًا كلتا يديه، كطالب في الصف يعرف الإجابة الصحيحة.

ولأني شعرت بشيء غريب أشبه بخيط لا مرئي يشدني نحو ذلك الكتاب، رحت أقنع نفسي بفكرة ما: «لن أقوم بشرائه، سأتصفحه فقط»، وهكذا وجدت نفسي أندفع نحو ذلك الرف البعيد، مثل زورق صغير يقترب من حافة شلال.

****

«مدينة الحب لا يسكنها العقلاء»

هكذا بدا العنوان مكتوبًا في أعلى الغلاف، هبطت ببصري قليلًا، لأشاهد وجه الشاب ثم ..

****

٣

لقد بدا الأمر كما لو أني سمعت صافرة قطار، وحين التفت نحو الصوت، وجدت نفسي أقف على سكته، وأن الأوان قد فات على النجاة:

- يا رب الكون الكبير، إنه الموت، إنها عيناك، إنه أنت ..

****

أتعلم:

منذ أن افترقنا وطيفك يلاحقني مثل لعنة أصابت قرصان، مثل شبح يظهر من شباك بيت مهجور يلوح للمارة بحزن لأنه فارق الحياة، كنت أراك في كل مكان أزوره، وحين أركض نحوك لأرتمي في حضنك كنت تختفي من أمامي في الثانية الأخيرة.

ذات مرة طلبت من النادل قهوة مرة:

- أين ستجلسين يا آنسة؟

كنت أفتش بعيني عن طاولة فارغة، حين لمحتك تشير بيدك نحوي من الزاوية وتصرخ:

- تعالي هنا حجزت لكِ هذه الطاولة.

أشرت بإصبعي نحوك مبتسمة:

- سأجلس برفقة ذلك الشاب.

نظر النادل نحو المكان الذي أشرت إليه بإصبعي، لكنه لم يرَ أحدًا:

- عفوًا لا يوجد هناك شاب يا آنسة، توجد هناك فقط طاولة فارغة!

تذكرت أنه لا يمكن لأحد غيري أن يراك:

- هاه، سأجلس وحدي إذًا على تلك الطاولة.

ثم ولأني أعرف القهوة التي تفضلها، طلبت من النادل أن يضيف إلى قهوتي المرة، قهوة أخرى حلوة:

«كما تشائين يا آنسة»

حين جلست أمامك:

سألتك متى تكف عن مشاغباتك، أخبرتك غاضبة أن ظهورك المتكرر يسبب لي الحرج:

- كف عن ظهورك هذا، أريد مواصلة الحياة بعدك!

ولأنه لم يبدُ على وجهك التأثر، فكرت في أن أقول لك كذبة من شأنها أن تثير غضبك، لعلك تغادر من غير رجعة:

- هناك شاب جاء لخطبتي، أعتقد أنه طيب القلب، عمومًا أخبرت والدتي بأني موافقة!

«ليت للأنثى قلبًا مثل قلوب الرجال، قلبًا يصلح أن يكون مشروع وحدات سكنية، يأوي إليه العابر والمحتاج، ولا يرفض المتردية ولا النطيحة، لكن الله خلق للأنثى قلبًا يشبه العرش لا يجلس عليه إلا ملك واحد، حتى وإن كان ذلك الملك شخصًا لا يستحق»

يبدو أن الكذب حينها كان واضحًا على وجهي، الأمر الذي دفعك لتبتسم متجاهلًا كذبتي وتقول: أنتِ كل أشيائي الجميلة.

ولأني فتاة بلهاء، تغضب من أتفه الأشياء وترضى بكلمة حلوة، نظرت إلى الأرض خجلًا، وحين رفعت رأسي لم أجدك أمامي على الطاولة، فقلت لك باكية:

- عد أرجوك، لقد طلبت لك قهوة حالية!

****

في المكتبة:

حين رأيت صورتك على غلاف الكتاب، لم أجرؤ على مد يدي نحوك، لأني كنت أخشى أن تكون طيفًا، وأنك ستهرب بعيدًا عني، لو أني حاولت لمسك.

لذلك مكثت أحدق فيك لبعض الوقت ثم ..

هل جربت يومًا أن تذهب إلى حديقة الحيوان، وتشاهد الزوار يضعون في أيديهم طعامًا ويمدونه نحو القفص لإطعام الفيل؟! فتضع أنت بدورك بعضًا من ذلك الطعام وتمده نحو الفيل لإطعامه، هل جربت ذلك الخوف الذي يعتري قلبك حين يلتفت إليك الفيل ويقرر أن يتناول من يدك الطعام؟!

هذا بالضبط ما كنت أشعر به عندما مددت يدي نحو صورتك على الغلاف ..

لمست الغلاف بيدي، وعندما لم تختفِ صورتك، عرفت أنها كانت حقيقية، وليست طيفًا مثلما كنت أعتقد:

- إنها صورته حقًّا، لقد فعلها.

****

قد لا يعجبك ما سأقوله لك الآن لكنها الحقيقة:

«خلف كل رجل ناجح امرأة تساعده على النجاح،

وخلف كل امرأة ناجحة قلب مكسور حطمه لها رجل وغاب»

أذكر أنك كنت تريد أن تكون كاتبًا، وأنك كنت تسعى جاهدًا لتأليف كتابك الأول، لكنك كنت مهزوزًا، لست واثقًا من نفسك، تخشى رد فعل الناس، وكنت خائفًا من أن لا يقرأ لك أحد، ولكن لأني امرأة فقد كان واجبي يحتم علي دومًا أن أكون معك، أن آخذ بيدك لتحقق أحلامك، أن أخبرك بأن كل شيء سيكون على مايرام، وبأنك يومًا ما ستصبح الكاتب الأول:

- حاول أن تكتب شيئًا - قلت لك عبر سماعة الهاتف -

- لن يقرأ لي أحد - أجبتني بإحباط واضح -

- صدقني سيقرأ لك الكثير

- هذا لن يحدث - ثم قلت بعد تردد وكأنك تعترف بذنب ما - أنا فاشل لن يهتم أحد بما أكتب!

- بلى سيحدث

- لن يحدث

- بلى سيحدث

- قلت لكِ لن يحدث ألا تفهمين، أنا فاشل لن يهتم أحد بما أكتبه، وانتهى الأمر !

«كنت سأقول لك حينها: بأني سأهتم، وبأني سأقرأ لك دومًا، وبأني سأكون جميع جماهيرك الغفيرة»

لكني ما كدت أن أفتح فمي، حتى صرخت في أذني:

- أغلقِي هذا الموضوع رجاءً، أنت لا تعرفيني كما أعرف نفسي، أنا فاشل لقد حاولت مرات كثيرة وفي كل مرة كنت أتلقى

انتقادات الجميع - ثم صمت قليلًا كأن هناك شيئًا تريد أن تخبرني به، لكنك أنهيت الحديث قائلًا - هذا يكفي لا أريد التحدث في هذا الموضوع مرة أخرى، أتفهمين؟!

سبب لي غضبك المتصاعد حينها توترًا في داخلي، مما جعلني لا إراديًا أوافقك على ما تقول علك تهدأ ويخف الغضب في داخلك:

- حسنًا أنت فاشل، ولن أفتح هذا الموضوع مرة أخرى، أعدك!

عندما سمعتني أقول لك بأنك فاشل، اعتبرتها شتيمة فأغلقت بوجهي الخط، ولم تسمعني حين قلت لك بصوت خافت:

آسفة لم أكن أقصد!

خشيت أن أعاود الاتصال عليك فتغضب أكثر لأني لحقت بك، وخشيت أن لا أتصل فتعتقد أني لا أهتم لأمرك، تبًّا للرجال فلا أحد يعرف ما يدور في عقولهم، حتى هم أنفسهم لا يعرفون.

****

في المكتبة:

كان هناك عدد لا بأس به من الناس، وكنت أشعر بأن في مقدورهم سماع ما يدور في قلبي، لهذا فكرت بمغادرة المكان والعودة للكتاب لاحقًا!

لكني في النهاية لم أغادر، لأني تذكرت كلامك عندما قلت لي مرة بأن لا أكترث بشأن أحد، وأن أتصرف أحيانًا بغباء، لأن الأغبياء هم أكثر الناس سعادة:

- ولماذا الأغبياء أكثر الناس سعادة؟!

قلت لي حينها ما لن أنساه أبدًا:

- الأغبياء أكثر الناس سعادة، لأنهم يتصرفون كما يحلو لهم، من غير أن يكون في استطاعة عقولهم البسيطة التفكير في الكلام الذي سيقوله الناس من وراء ظهورهم، لذلك إن أردتِ أن تكوني سعيدة يجب عليك أحيانًا، أن تتحلي بقدر كبير من الغباء.

ولأني أثق بنصائحك: تجاهلت الناس، وأخذت كتابك!

****

بائع الكتب العجوز ذو الظهر المنحني إلى الأمام، والذي يملك أنفًا يشبه شخصًا يتكئ على جدار، كان ينظر نحوي بنصف عين، إنه يعتقد أني سأسرق الكتاب، لهذا راح يتظاهر بمسح الطاولة، بينما كان ينظر نحوي من زاوية عينه محاولًا أن ينصب لي فخًّا، حتى يلقي القبض علي متلبسة.

يبدو أن السنين الطويلة التي قضاها، لم تعلمه أن الرجال مهما تقدموا في الذكاء، فإنهم لا يستطيعون مهما فعلوا أن يتغلبوا على كيد امرأه.

****

٤

«القفز فوق بحيرة مليئة بتماسيح جائعة»

الإثنين،

٥:٣٩ مساءً،

«لا أزال في المكتبة»

حين أصبح الكتاب في يدي:

مررت أصابعي على أرنبة أنفك وعينيك، وجعلت أحاول ترتيب شعرك ولحيتك، وتعديل ياقة قميصك وربطة عنقك، كنت أتلمس وجهك على الغلاف وأنا أبتسم مثل جدة عمياء تتلمس وجه حفيدها لأول مرة في حياتها.

- هل تريدين شراء الكتاب؟!

سألني بائع الكتب بصوت يشبه صرير طاحونة قديمة وهو ينظر نحوي بشك

- سأتصفحه أولًا!

نظر البائع نحو السقف وأشار بإصبع مجعد، يكسوه شعر أبيض كثيف، بدا أنه كان يصففه في البيت مستخدمًا مشطًا وسشوار:

- إن المكان مراقب بالكاميرات!

تظاهرت بأني لم أفهم ما يقصد:

- سأدفع قيمته لو أعجبني.

****

في ركن المكتبة كانت توجد بعض الكراسي والطاولات لتصفح الكتب، جعلت أسير نحوها وفي يدي الكتاب، وكنت أنظر إليه في كل لحظة حتى أتحقق من أن صورتك ما زالت على غلافه.

جلست فوق أحد الكراسي ثم:

أغمضت عيني سحبت من الهواء نفسًا عميقًا، كنت مترددة في أمر قراءته، كان الأمر يبدو صعبًا ومستحيلًا كما لو أني سأقوم بالقفز من طائرة شراعية احترق جناحها فجأة، في اللحظة التي كانت تمضي فيها من فوق بحيرة تضج بتماسيح جائعة.

****

في الغياب أيها الكاتب:

لا أطلب منك الكثير، لا أريدك أن تذكرني في إحدى رواياتك، ولا أن تخبرهم بأني كنت أول من آمن بك، كل ما أريده منك هو: أن لا تدع نجاحك سببًا في نسيانك لي، وأن تذكرني بينك وبين نفسك من حين إلى حين، وأن تخبئني داخل قلبك بعيدًا، في مكان لا تصل إليه يد عاشق جديد!

اذكرني كلما شعرت بحاجة إلى شخص يقف قريبًا منك، حتى إذا رآك سقطت، اندفع نحوك يحملك بين ذراعيه، أو كلما استيقظت صباحًا، ولم تجد رسالة على هاتفك تخبرك بأن شخصًا اشتاق إليك، التفت خلفك عندما يخذلك الجميع، ستجدني ظهرًا في إمكانك الاستناد عليه، فمن يستند على امرأة، لا يخسر حتى ولو تآمر كل العالم عليه!

****

المرأة دائمًا تتمنى النجاح للشخص الذي تحبه، لكنها لا تريده أن يصبح مشهورًا، ليس لشيء عدا أنها تغار، والمرأة مهما بدت لطيفة مثل نملة تسرق كسرة خبز من طبق الطعام، إلا أنها حين تغار، تصبح وحشًا لا يمكن ترويضه.

****

ولأن معلمة التوحيد أخبرتنا في الصف: بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا في كل ثلث أخير من الليل، فقد أصبحت أدعو الله قبل أن أنام، بأن يجعلك قردًا في عيونهم، حتى لا تُعجب بك فتاة.

ثم أنزلق تحت اللحاف حزينة، ليس لأني أخاف من عدم إجابة الدعاء، بل لأني أعلم بأنك حتى لو أصبحت قردًا، فإنك ستكون في عيونهم قردًا جميلًا وجذاب، مثل فستان زفاف أبيض في عيون امرأة عزباء.

****

قد تطول بك الحياة، وتقع في حب امرأة تقسم لك على الحب، تقاسمك أحلامها، وتحمل عنك همومك الثقيلة، لكنك لن تجد امرأة تتنفسك مثلما كنت أفعل، امرأة تخبرك بأنها سترافقك حتى لو أخبرتها بأنك ذاهب نحو الموت، أو بأن الجحيم سيكون محطتك القادمة، امرأة كانت مستعدة لأن تضحي بأكثر الأشياء أهمية، لتراك سعيدًا، آسفة لقول ذلك لكني أنا هي تلك الفرصة التي لن يكررها لك الزمان مرتين.

****

٥

«العنزة الصغيرة التي لا تعرف مصلحة نفسها»

الاثنين،

٦:١٤ مساء،

المنزل،

«بعد أن عدت من المكتبة»

الكذب ليس صفة جيدة، ومع ذلك لطالما تمنيت لو أن في استطاعتي الكذب بمهارة، دون أن يظهر ذلك واضحًا على وجهي أو صوتي.

فكم من المرات أخبرتك بأني أصبحت أكرهك وأني لا أريد النظر إلى وجهك بسبب برودك وعدم مبالاتك وأنني سأجد شخصًا آخر يستحقني أكثر منك، وأني سأنساك ولن ألتفت لك، لكنك كنت

دومًا تبتسم في وجهي كما لو أن كل تلك التهديدات لم تكن إلا نكتة:

- لماذا تبتسم، أقول لك بأني أكرهك!

- أبتسم لأنك عندما تكذبين تصبحين أجمل.

****

دعني أعترف لك بشيء:

في تلك الأيام التي كنت تهجرني فيها من غير سبب، كنت أهاتف صديقاتي، أطلب منهن النجدة، أتوسل إليهن بأن يأخذن بيدي بعيدًا عنك ..

كانوا يقولون لي: «هو لا يستحقك»

فأهز رأسي مثل عنزة صغيرة لا تعرف مصلحة نفسها وأردد:

«نعم هو لا يستحقني»

كانوا يقولون لي «ارحلي عنه وتذكري أن العمر لن يتوقف عليه»

فأهز رأسي مثل عنزة صغيرة لا تعرف مصلحة نفسها وأردد:

«نعم لن يتوقف العمر عليه»

كانوا يقولون لي: «لا تجيبي عليه حين يهاتفك»

فأهز رأسي مثل عنزة صغيرة لا تعرف مصلحة نفسها وأردد:

«نعم، لن أجيب عليه حين يهاتفني»

كان رأسي يمتلئ بكلامهن، وكنت في كل دقيقة أقضيها معهن، أصبح أقوى، وأكثر قناعة بأني سأتمكن من هجرك هذه المرة، وقبل أن أنهي معهن المكالمة، كنت أودعهن بحرارة شاب مخدوع يعتقد أنه سيذهب إلى الجنة، إذا ما قام بتفجير نفسه في مسجد أو كنيسة ..

لكن حين ألمح رقمك على شاشة الهاتف، كنت أفقد السيطرة على نفسي، ولا أستطيع منع يدي من التقاط السماعة، وحين أسمع صوتك كنت أنسى كل ما قالوه لي، وأصغي إلى كلماتك بصمت، وفي اللحظة التي تسألني فيها «هل تحبينني ؟!»

كنت أهز رأسي مثل عنزة صغيرة لا تعرف مصلحة نفسها، وأقول:

«نعم، أحبك».

****

ماذا أفعل وأنا التي، كلما حاولت الابتعاد عنك عدت مرة أخرى إليك، ليس ضعفًا عدا أني لا أملك مكانًا غير قلبك ألجأ إليه.

****

الاثنين،

٦:٢٣ مساء،

«غرفتي»

أخرجت الرواية من حقيبة يدي، وبدأت أقرأ ..

****

٦

«الكتابة شفاء للذاكرة»

الاثنين،

٩:٣٣ مساء،

«حين انتهيت من قراءة كتابك»

ما قرأته كان ساحرًا، ولا أعلم هل لأنه كان جميلًا، أم لأنك أنت من قام بكتابته، لكن ما أعلمه جيدًا هو: أن رحيلي عنك من جعل منك كاتبًا

أتعلم ؟! «لو أن الأقدار تعيدني إليك ستفقد حينها قدرتك على الكتابة.»

- حتى أكتب، أنا في حاجة إلى جرح عميق - هذا ما قلته لي مرة -

- لماذا تقول ذلك - سألتك حينها من خلف السماعة -

- لا يستطيع المؤلف أن يكتب شيئًا من غير أن يكون ممتلئًا بالألم ذلك أن الألم هو ما يدفع الكلمات للخروج.

- الخروج؟!

- نعم الخروج من قمقمها!

- قمقم - رددت خلفك مستفهمة - ما معنى قمقم؟!

- في الحكايات القديمة: يكون المارد محبوسًا داخل القمقم حتى يأتي من يخرجه منه.

- آه فهمت أنت تعني أن جميع المؤلفين قد عانوا جرحًا في يوم ما لذلك كتبوا؟!

- لا، بل هم على قيد الجرح طالما أنهم يكتبون.

فهمت حينها ما كنت ترمي إليه، لكن لأني كنت أريد المواصلة في سماع صوتك وإطالة الحديث معك، تظاهرت بأني لا أفهم كلامك، وهذا ما تفعله المرأة أحيانًا مع الرجل، إنها تتظاهر بعدم الفهم لتواصل الاستماع إلى صوته أطول فترة ممكنة:

- لم أفهم.

- لا جديد أنتِ دائمًا لا تفهمين، سأبسط الموضوع لكِ!

اجتمعت حينها ملامح وجهي عند أرنبة أنفي كما لو أني أكلت شيئًا حامضًا، لا أعلم هل أفرح لأني نجحت في إطالة الحديث معك، أم أغضب لأنك وصفتني بأني دائمًا لا أفهم، لكن على كل حال التزمت الصمت وواصلت الإنصات إليك.

- الكتابة شفاء للذاكرة، نحن نكتب لأن ثمة خيبة في داخلنا لا يستطيع أحد شفاءنا منها غير الكتابة، ولكن حين يطيب ذلك الجرح، لا يصبح للكلمات التي نكتبها معنى، لهذا يفتش المؤلفون دائمًا عن جرح آخر، كلما أرادوا تأليف كتاب جديد، فهمتِ؟!

كنت أريد أن أقول لك بأني لم أفهم حتى تستمر في الحديث، لكنني خشيت من ردة فعلك هذه المرة:

- نعم فهمت!

****

حتى أكون صريحة معك، لا أدري إن كنت رجلًا سيئًا معي أم أن هذا طبع الرجال عمومًا، فأنت أول رجل يقفز من فوق أسوار قلبي، لكن ما أعلمه جيدًا هو أنني كنت أحبك، وهذا وحده سبب يكفي لأغفر لك كل شيء، فنحن لسنا بحاجة للأعذار، حين يتعلق الأمر بشخص نحبه، فالحب يعني أن تغفر دون انتظار عذر.

بالمناسبة:

عندما كنت أعاتبك لم يكن يعني أني كنت أكرهك، أو لأني كنت أحب اختلاق المشاكل على حد قولك، بل كان يعني أني كنت أحبك، ولا أريد البقاء دونك، فنحن نعاتب فقط الأشخاص الذين نهتم لأمرهم، ولا نستطيع مواصلة الحياة بدونهم ..

كان عليك أن تحذرني في اللحظة التي أراك فيها مخطئًا ولا أعاتبك، فالرجل عليه أن يحاسب نفسه ألف مرة عندما تتوقف امرأة عن معاتبته، لأن المرأة عادة لا تصمت إلا حين تقرر أن الكلام لم يعد مفيدًا، وأن الرحيل وحده هو الحل المناسب.

****

وأقسى ما في رحيل المرأة، هو أنها حين ترحل لا تعود مرة أخرى، وإن أشفقت عليك وعادت، فإنها تعود امرأة أخرى لا علاقة لها بتلك الأنثى التي كانت معك يومًا.

****

وأنت:

على الرغم من أنك، لم تكن تقول كلام الحب إلا في العام مرة، أو عندما تدرك أنك ارتكبت خطأً فادحًا في حقي، إلا أنني كلما شعرت بحاجة إلى سماع كلمة حب منك، كنت أنتزعها منك غصبًا، فصحيح أن فمك كان طوال الوقت صامتًا، لكن عينيك كانتا تحكيان لي الكثير دومًا، وهكذا كلما نظرت إليهما، كانتا تخبرانني بأنك تحبني جدًّا!

وأنا:

لست ثرثارة، ولا أمتلك عادة الضحك الكثير، لا أحب الأحاديث في الأشياء التافهة، وكنت دومًا الطرف الذي يظل صامتًا حتى يقرر الآخرون التحدث معه، لكن أمامك كان الأمر دائمًا يبدو على نحو آخر..

أمامك:

أنا الثرثارة التي لا تجيد الصمت، الفتاة التي تضحك لأتفه الأسباب، وتذوب في فنجالك مثل قطعة سكر لو أنك عن طريق الخطأ امتدحت شيئًا فيها، أنا الفتاة العاقلة التي كنت يا سيدي تنزع عنها عقلها بكل سهولة، مثل نادل في مطعم فخم ينزع معطف الفرو عن جسد سيدة حسناء، أنا تلك الفتاة التي لا تكترث بشأن أحد، لكنها أمامك كانت تصبح مثل طفلة صغيرة تلوي شفتها السفلى وتقطب حاجبيها، عندما تخبرها بأن أشغالك العديدة تمنعك من البقاء معها، أنا تلك العنيدة التي كانت تغضب منك وتغلق الخط في وجهك، وتقسم بالله أن تلقنك درسًا لن تنساه، ثم بعد دقيقتين فقط تعود إليك مثل قطة أليفة، تركض خلف سيدها وهي تهز ذيلها، لأنها لمحت في يده طبق طعام.

****

لو أن الإنسان حين يكذب، يطول أنفه سنتمترًا واحدًا، كما كان يحدث في قصة بينوكيو، لأصبح الرجال في حاجة إلى آلاف الكيلو مترات أمامهم، حتى يمشوا دون أن تصطدم أنوفهم بشيء.

ورغم هذا كنت دائمًا أقوم بتصديقك، حتى حين كنت أعلم بأنك تكذب، إلا أنك حين أخبرتني برغبتك في الزواج بي، كان يجب علي أن أجعلك تقسم بالله خمس مرات وفي يدك المصحف على أنك صادق فيما تقوله، ليس لشيء عدا أني كنت أعلم جيدًا كيف يفكر رجال الشرق، إنهم يعتقدون أن هناك فتاة وجدت للحب، وأخرى للزواج، لذلك حين يقعون في حب فتاة لا يتزوجونها، بل يتزوجون من فتاة أخرى تختارها لهم أمهاتهم: فتاة لا يعرفون عنها شيئًا، عدا أنها في إحدى المناسبات، أجادت رقصة فوق خشبة المسرح.

****

إلى رجل لم يقع في الحب بعد:

حاول أن لا تورط نفسك في حب فتاة إن لم تكن شجاعًا، فالحب ليس كلامًا يُقال بعد منتصف الليل، إنه أمان ووعود، وأيمان غليظة وعهود، وقضية شرف، عار عليك أن لا تربحها!

لا بأس في اختيار الأم، لكن شرط أن يكون قلبك خاليًا من حب فتاة، فليس من الرجولة في شيء، أن تخذل فتاة كانت مستعدة لأن تشعل النار في كوكب الأرض، ثم تقدمه لك في يدها على أنه جمرة، لو أنك فقط أخبرتها يومًا بأن برد الشتاء آذى عظامك الصغيرة.

****

٧

«حين رأيتك كفرت بكل معتقداتي»

بعد انتهائي من قراءة الكتاب، وضعته داخل حقيبة يدي، وشعرت بأني ممتنة لك جدًّا لأنك فعلت شيئًا من أجلي، في الوقت الذي كان بمقدورك فيه استبدالي بفتاة أخرى، فالحب اليوم أصبح سلعة يُباع في متاجر الخردة والجملة!

كتابك:

كان أشبه بالانتحار، سيهاجمك الناس، سيغضبون عليك، ربما يشتمونك أو ينعتونك بالكفر والزندقة، إنهم أنفسهم أكثر العالم سقوطًا في الحب، لكنهم أكثر العالم أيضًا خوفًا وهربًا منه، ربما لأنهم تألموا منه كثيرًا، فإنك حين تفتش خلف أولئك الذين اعتزلوا الحب، تكتشف أنهم فيما مضى كانوا أكثر الناس صدقًا وغرامًا، إلا أن وجعًا فظيعًا أصابهم جعلهم لا يثقون به مرة أخرى.

****

«يجب علينا أن ندرك أن العيب ليس في الحب، بل في اختياراتنا الخاطئة، هناك بشر لو أننا حين رأيناهم أول مرة كنا قد استعذنا بالله من الشيطان الرجيم، لاختفوا من أمامنا فورًا»

****

في الحقيقة:

كانت الصداقة دومًا خياري المفضل، وكنت دومًا أومن بأن الأذكياء لا يليق بهم الوقوع في شراك الحب، ولطالما كنت أعتقد أن الوحدة هي قدر الإنسان، فهو يأتي إلى الدنيا وحده، ويغادرها وحده، ويحاسبه الله يوم القيامة وحده!

«لكني حين رأيتك: كفرت بكل تلك المعتقدات،

وآمنت بأن الحب قدر بأنه بلاء وأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه»

****

ربما سأكتب:

بل من المؤكد أني سأكتب، لكن لا أعتقد أن كتاباتي ستصل إليك، فمن غير الممكن إرسال حزمة من الأوراق عبر إحدى شركات الشحن، إلى شخص لم أعد أعرف عنه بعد هذه الأعوام، إلا اسمه وملامح وجهه.

خطر في بالي أن أستعير طريقتك، وأقوم بطباعة هذه الرسائل على هيئة كتاب، عللك تقوم بقراءته يومًا، لكن المشكلة تكمن في أني متأكدة بأنه لا توجد هناك دار للنشر، ستوافق على طباعة هذا الهراء الذي أقوم بكتابته الآن، وحتى لو جعل الله من بين أيديهم سدًّا، وجعل من خلفهم سدًّا، وأغشى أبصارهم وجعلهم يوافقون على طباعة هذه الأوراق، فلن أستطيع وضع اسمي أو صورتي على الغلاف مثلما فعلت أنت، لأني لست مستعدة للموت حرقًا بالنار.

ورغم كل هذا، ولأني أتألم كثيرًا، وأريد أن أحلق عاليًا فوق سطح الجرح، سأكتب وسأحتفظ بالأوراق لنفسي، أو ربما أمزقها حين أنتهي، لكن المهم هو أن أكتب، فالكتابة كما علمتني أنت: شفاء للذاكرة.

«الرسائل الثانية، للفتاة التي

ينتهي اسمها بتاء مربوطة»

كان يجب علينا أن نبقى أصدقاء

فالحب عمره قصير جدًّا

قال أحد الحكماء:

بأن المرأة مخلوق رائع،

فلو أن الله خلقها طائرًا لكانت طاووسًا،

ولو أنه خلقها حيوانًا لكانت غزالة،

ولو أنه خلقها حشرة لكانت فراشة،

ولكنه خلقها بشرًا فكانت:

أمًّا، وأختًا، وزوجة،

ولو لم تكن شيئًا عظيمًا جدًّا،

لما جعلها الله حورية يكافئ

بها عباده المؤمنين في الجنة.

هناك شخص حين تراه تدرك أن الحياة بخير، وأن العالم ما زال في مقدوره إسعادنا، أحببتك كما لو أنك آخر مخلوق في الدنيا، كما لو أن البشر سينتهون من الأرض قريبًا، وأنت الأمل الأخير الباقي لعدم انقراض البشرية، لكن فاتني أن أعلم بأن الفرح وقته قصير، وأن القدر صياد ماهر، يصطاد كل شخص نعترف له بالحب.

أتساءل دائمًا: هل كان في مقدورنا مراوغة القدر؟!

أعني لو أننا كنا قد تجنبنا كلام الحب،

وتظاهرنا بأننا صديقان لا أكثر،

هل كان القدر حينها سيمضي بمحاذاتنا

دون أن يخطفك مني؟

تُرى كم كان يلزمنا من المكر

حتى نبقي أعين الأقدار بعيدة عنا،

وكم يلزمني الآن من الصبر

حتى أحتمل غيابك عني!

طالما أن الأقدار

تأخذ منا كل شيء نحبه،

ما رأيك في أن

نحب هذا الفراق الذي بيننا،

عل الأقدار تأخذه منا

ونلتقي أنا وأنت مرة أخرى.

لا أخفيك سرًّا:

بأن قلبي يتمنى أن تخذلك جميع نساء العالم

حتى أبقى في ذاكرتك فتاة لا تنجح في نسيانها أبدًا

ربما سأرحل عنك، لكني مضطرة إلى ذلك، لا تقلق لن أبتعد كثيرًا، سأظل أراقبك من حيث لا تعلم، ذلك أننا في الفراق لا نختفي كما تظنون، بل نختبئ في مكان قريب منكم، لنراقب بصمت كل الأشياء التي تفعلونها في غيابنا!

«أمد يدًا للريح،

أصافح طيف يدك الممتدة في الهواء،

أقبل هواء المدينة في كل لحظة فربما،

مضت من أمامي نسمة هواء تحمل ثاني أكسيدك!

أنادي طيور السماء:

- «قولي له بأني أحبه ولن أنساه،

وبأنه سيظل دائمًا كل أشيائي الجميلة»

تحلق نحوك الطيور دون أن تسألني عن العنوان

يكفيها أن تنظر إلى عيني لحظة فتعرف عنوان بيتك

لكنها حين تراك تصمت وتحدق فيك بإعجاب،

هي لا تثرثر معك كما تفعل كل يوم معي أمام الشباك،

ليس لأنها تنسى ما أخبرها به،

ليس لأنها تخجل منك حين تراك،

بل لأن هيبتك تفقدها القدرة على الكلام»

قبل أن تفتش عن الحب، فتش عن أصدقاء،
ينقذونك من ذلك الحب حين ينتهي.

عندما نتمسك بكم، لا يعني أننا نخاف رحيلكم، فنحن لا نخشى رحيل أحد، وليس منا من يخاف البقاء وحيدًا، كل ما نخشاه هو: ذلك الشوق الذي يصيبنا بعد الفراق، لو أننا نضمن النسيان، لما خفنا احتمال غيابكم يومًا.

«بيد أن النسيان كذبة الإنسان الكبرى،

لا أحد ينسى بل يتظاهر الجميع بالنسيان،

نعلم عنهم كل شيء، نشاركهم أدق تفاصيل اللحظات،

ثم نفارقهم فجأة، ونواصل من غيرهم الحياة،

وبعد أعوام:

ترتب لنا الأقدار موعدًا معهم في مكان عام،

فنمضي بمحاذاة بعضنا كما لو أننا أغراب،

تتلامس أوجاعنا لكن لا يحق لنا الالتفات أو سؤالهم،

عن الشخص الذي احتل مكاننا في الغياب،

هذه سنة الأقدار:

أغرابٌ فأحباب،

وفي النهاية يعود كل شيء مثلما كان»

قال لها: أنتِ طبيبة جيدة

ابتسمت ولم تفهم قصده

قال: لأني حين أفكر قليلًا بكِ أشفى

أكثر ما يؤرقنا بعد الفراق هو:

عمر طويل كنا نظن أننا سنحياه معهم، وإذ بنا نحياه دونهم، وأحلام كثيرة كنا نظن أننا سنحققها بصحبتهم، لكننا سنواصل تحقيقها مع غيرهم، ومقاهٍ احتسينا فيها نخب حب كنا نظن أنه سيمتد بنا إلى آخر العمر، وأمنيات لفرط بساطتها لم نكن نظن أن الحياة ستبخل بها علينا، فاتنا أن نجتنب كثيرًا من الظن، فاكتشفنا متأخرًا: أن بعض الظن إثم.

أتخيلك عندما تصبح كبيرًا في العمر:

تخبرني بأن ظهرك أصبح اليوم بخير وأن

عظامك تحسنت كثيرًا بعد الدواء،

تخبرني أن الطبيب أكد أنك ستكون على ما يرام،

وأن كل أوجاعك ليست إلا أعراض بردٍ سيتكفل بها الدواء،

ورغم أني أعلم بأنك لست بخير،

وأنك تكذب حتى لا تقلقني عليك،

إلا أني أبتسم وأتأمل مطولًا في عينيك فأقرأ فيهما:

«أنا خائف»

أمسك يدك المجعدة أمرر يدي على خاتمك الذي

ما زال يحتفظ بحروف اسمي الأربعة،

أسند رأسي على كتفك الذي لم يعد قويًّا كما كان لكنه،

أصبح أكثر أمانًا من أي يوم مضى،

- لا تخف أنا معك !

تدرك أني قرأت ما كان مكتوبًا في عينيك،

فتهمس لي بصوت منخفض: أحبكِ

أتظاهر فجأة بأني لمحت شيئًا مضى من خلفي،

ألتفت إليه حتى لا ترى اللون الأحمر على خدي،

فرغم أني سمعتك تقول «أحبكِ» مئات ألوف المرات،

ورغم أني أصبحت جدة ولدي حفيدات وأحفاد،

إلا أنك في كل مرة تقول لي «أحبكِ»،

يحمر فيها خداي وأستحيي!

ولأنك اخترتني أمانًا لك،
قل للشرور بأن تستريح،
فأنت بخير،
طالما أني معك.

جميعهم يهزؤون بي، كلهم يسخرون مني، لأني لم أستمع لهم عندما أقسموا لي ذات مرة، أنك لن تبقى معي إلى الأبد، وأن هناك يومًا سيأتي سترحل فيه عني، جد لنفسك طريقة تخبرهم فيها بأنك لم ترحل بإرادتك، أخبرهم بأنك تحبني، وأنك لا تزال تفكر بي، قل شيئًا ولو كذبًا، لتسكت أفواهًا كلما أدرت لهم ظهري، سمعتهم همسًا يهزؤا بي ويسخروا !

«من يعرف طريقة، أرشو بها ذلك
الموظف الذي يدعى نسيان
حتى يؤدي مع الوقت وظيفته بأمانة
في ذاكرتي وأنساك؟!

ومن في استطاعته أن يقنع عيني بأنها لن تراك؟
حتى تكف البحث عن ملامحك في وجوه العابرين
وفي شرود الغرباء!

ومن في استطاعته التحايل على هذا القلب

حتى يكف عن النبض كما قرع دف!

كلما نطق أحدهم اسمًا مثل اسمك،

ينادي به شخصًا آخر عداك.»

لم أكن أحب أفلام الرعب،

لكني كنت سأشاهدها معك كثيرًا

حتى ألقي بنفسي في حضنك،

كلما جاءت لقطة مرعبة

ربما لستُ فتاة صالحة، لكني أسعى دومًا لأكون كذلك، لا أترك صلواتي أبدًا، لكني أقوم بتأخيرها أحيانًا، قد تشاهدني أرقص الآن على أغنية، وبعد ساعة أشاهد محاضرة دينية، أرتكب أخطاء كثيرة لكني لا أبرر لنفسي وأدرك أني مخطئة، مشكلتي الوحيدة هي أنني أتذكر دومًا أن الله غفور رحيم، وأنسى كثيرًا أنه شديد العقاب.

الرجل طفل صغير،
عندما يشاهد لعبة جديدة،
يحاول بكل قوته الحصول عليها،
وكلما كان الوصول إلى تلك اللعبة أصعب،
كلما أصبحت في عينيه أجمل،
لكنه ما إن يحصل عليها،
ويلعب بها ليوم أو ليومين،
حتى يشعر بالملل منها،
فيضعها جانبًا في زاوية الغرفة،
ويعود إلى لعبته القديمة!

في الحب ليس شرطًا
أن أراك متلبسًا
بالخيانة لكي أهجرك
يكفي أن لا أشعر بالأمان معك
وأعدك بأن لا تراني مرة أخرى

كيف أنساك وكل الأشياء تشير نحوك، مثل طالب في قاعة الامتحان، يشير لزميله خلسة نحو الإجابة الصحيحة، إن فكرة الحياة من غير ابتسامتك التي كانت تطوقني مثل دعاء أم، باتت الآن فكرة مستحيلة، أتعلم؟ إنه أمر يدعو للرثاء، عندما تتلقى خبرًا سعيدًا لكنك، لا تستطيع أن تفرح به لأن الشخص الذي، كان يجعل لك الفرح ممكنًا، بات الآن بعيدًا ..

بالمناسبة أتعلم بأني
ما زلت أقفز من مكاني مثل
سنجاب أليف أفزعه
طفل مشاغب في حديقة الحيوان
كلما رأيت شاشة الهاتف تومض،
تخيل أني ما زلت بعد كل هذه الأعوام،
أنتظر منك رسالة في آخر الليل،
تخبرني فيها كعادتك،
بأنك تحبني كثيرًا،
وبأني كل أشيائك الجميلة.

لستُ في حاجة
لأرفع صوتي عليك
حتى تدرك
أهميتي في حياتك
يكفي أن
أغادر حياتك بهدوء
لأجعل الوقت والتجربة والأيام
يخبرونك على انفراد
كم كنت أبلهًا
لأنك خسرتني

بعد كل علاقة حب كبيرة، توجد هناك علاقة غبية جدًّا نتورط بها مع شخص غريب، ورغم أنه قد يكون شخصًا سيئًا، إلا أننا نواصل معه الطريق: نقترف بصحبته أخطاءً لا تمثلنا، نقطع له وعودًا ندرك جيدًا أننا لن ننفذها، وحين يتأكد لنا أن ذلك الشخص وقع في غرامنا، نختلق معه مشكلة تافهة، ثم نهجره ببرود، كما لو أنه منديل متسخ لم تعد هناك حاجة للاحتفاظ به.

ويومًا ما،

ستكتشف بنفسك،

أن الأشخاص السيئين كانوا فيما مضى:

أكثر الناس مرحًا وتسامحًا وطيبة ومغفرة،

لكن ثمة شيء ما حدث معهم ذات مرة،

ذلك الشيء أخرج لهم أنيابًا ومخالب،

وعلمهم أن لا مكان في الأرض لأهل القلوب الطيبة.

جميعنا مثل الزجاج
شفافون جدًا
وسريعو الكسر،
لكن حين يكسرنا
أحدهم نستحيل إلى:
شظايا حادة صغيرة تجرح كل يد تمتد نحونا.

إلى رجل مغرور يثير الشفقة
لا تفسر كل نظرة تأتيك من فتاة
أنها نظرة اعجاب
فربما كانت تبحث عن زوج حذاء
يناسب أعمال المنزل الشاقة

قد تحلف المرأة أمام صديقاتها: أنها انتهت أخيرًا من حبها القديم، وأنها ألقت به في سلة النفايات، لكن صدقني بمجرد أن يمس الحنين قلبها، ستذهب تلك المرأة من تلقاء نفسها نحو سلة النفايات، لتفتش عن حبها القديم، علها تعثر عليه وتستعيده مرة أخرى.

الكبرياء:

أن تردد كلمة «بخير»

بينما في قلبك ألف خيبة ووجع،

أن تبتسم في الوقت الذي

تشتاق فيه إلى سماع صوت أحدهم،

أن تقول وداعًا لشخص تحبه

لأنه أخطأ في حق كرامتك،

أن تجعل من عزة نفسك نقطة،

ينتهي قبلها أي سطر.

قال: اشتقت إليكِ

قالت: وأنا أيضًا لكننا افترقنا

قال: ما رأيك أن نلتقي الليلة، ثم ومن أجل الكبرياء ندعي أن لقاءنا كان صدفة

الشرور التي اقترفتها البارحة، والتي لا تزال منهمكًا في صنعها اليوم، لن تختفي كما تظن، بل ستعود إليك في المستقبل حين تكمل الأرض دورتها الكاملة، لترتطم في وجهك، وتحطمك نهائيًا!

إلى كل أولئك الذين!

يخطئون في حقنا عمدًا،

ثم نسامحهم،

ثم يخطئون في حقنا عمدًا،

ثم نسامحهم،

نحن لا نسامحكم من باب الضعف!

بل من باب الرفق بالحيوان لا أكثر!

كل الذين تحبهم اليوم بصدق،
سيؤذونك غدًا بإخلاص .

حين تكثر أشغالهم فجأة
وتشعر بأن وجودك بات
ثقيلًا بينهم، لا تتمسك بهم
بل غادرهم بكرامتك
قبل أن يدفعوك للمغادرة بدونها

كن وقحًا وسيحترمك الجميع، جرب أن تصبح طيبًا ولن يهتم بك أحد، ذلك أن بعضهم يعتقد أن الطيبة التي يعامله الناس بها، تدل على سذاجة وضعف، يبدو أن الحياة لم تخبرهم بعد، بأن لا أحد يصبح أكثر سوءًا وأشد قسوة، من شخص طيب، حاول أحدهم أن يؤذي قلبه!

عندما كنت أغضب منك

كنت أقسم أن لا أسامحك أبدًا!

بيد أنك كنت تعود في نهاية اليوم

مثل طفل مرهق!

تبتسم في وجهي ببلاهة،

وتقدم لي عذرًا تافهًا لا يُقبل!

كنت أسامحك بلا تردد،

ليس لأني فتاة طيبة جدًّا،

بل لأنك تملك ابتسامة

تكفي أن تكون عذرًا مقنعًا لا يُرفض!

أنا شخص يفقد الذاكرة
عندما يؤلمه كبرياؤه
لذلك لا شأن لي
بمزاجك المعكر
ولا بالأشياء السيئة التي
حدثت معك البارحة
كن مؤدبًا حين تحادثني
حتى لا أنساك نهائيًّا

حتى الوردة التي في طرف بستانك، قد تمتد جذورها إلى ما بعد الحائط، للبحث عن قطرة ماء تنقذ بها حياتها، هي لم ترتكب خطأً، فالذنب ذنبك حين أهملت سقايتها، لذلك لا تبدد مزيدًا من الوقت لبناء الأسوار، فأسوارك المرتفعة لا تخيفني، ولن تمنع جذوري من التمرد بحثًا عن قطرة ماء، كل ما أريده منك هو قليل من الاهتمام، وأعدك أن تبقى جميع الأزهار لك، حتى ولو جفت جميع آبارك، أو احترق البستان!

الرجال قوامون على النساء تعني:
أنه القائم على الإنفاق عليها،
أنه القائم على حمايتها،
أنه القائم على توفير الأمان لها،
أنه القائم على حفظها ورعايتها،
وليست القوامة تعني رفع الصوت والتأمر،
كما كانوا يخدعوننا.

يبتعدون وحين نعتاد رحيلهم،
وتصبح حياتنا في غيابهم أجمل،
يطالبوننا بالعودة،
ههه كم هذا مضحك جدًّا.

قال :

حبيبتي التي لم تأتي بعد
أعيذك من شر الغياب
قبل أن تأتي
حبيبتي التي لم تأتي بعد
حين تأتي لاترحلي

في بلاد الشرق: يقترف الناس الحُب ليلًا، وفي الصباح يستعيذون بالله منه، لا أعلم من كذب عليهم، وأخبرهم بأن الحب جرم تعاقب عليه أنظمة الدولة، وأن مرتكبه يُلاحق من رجال المباحث، وأجهزة الشرطة، في بلاد الشرق ما زال أبو لهب حيًّا يرزق، علمهم أن المرأة لا خطأ لها يغفر، وأن الرجل مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!

يا رب علم رجال الشرق:

أن الحب ليس عيبًا أنه ليس ذنب

يا رب علم رجال الشرق:

أن المرأة ليست عارًا، بل إنها شرف وفخر.

إلى الرجال الذين يفاخرون بخيانتهم،
يلقي إبليس عليكم التحية، ويخبركم بأنه فخور بكم جدًا.

بعد الزواج
يصاب بعض الرجال
بشيء من العمى أو الحول
لذلك يخونوا زوجاتهم
مع فتيات قبيحات جدًّا

احذر شخصًا تحبه، ويخبرك بأنه لا يريد منك أن تغار، لأن الشخص اللعوب وحده من يخاف الغيرة، ويحاول إقناعك على الدوام، بأنها مرض يجب عليك علاجه!

أحيانًا أتمنى لو أني أصبح ساحرة،

أحولك بعصاتي السحرية إلى ضفدع أخضر،

أحبسك في قنينة زجاجية ضد الكسر والرصاص،

وأضعك بجوار عطوري ومستحضراتي التجميلية،

لا تقلق ..

ستزورك ساحرتك في كل مساء،

لتأخذك إلى نزهة قصيرة،

لا تبتسم للغرباء!

حتى لا تخلع لك أسنانك الجميلة،

لا تلتفت يمينًا أو شمال!

حتى لا تقتلع لك عينيك البريئة،

فحبيبتك طفلة حين تغار

تصبح شيطانة رجيمة!

عندما أكون غاضبة منك ثم
أخبرك بأني سأخلد إلى النوم
هذا لا يعني أني أريدك أن
تتمنى لي نومًا طيبًا
بل هي دعوة مشفرة
أرسلها لك تعني: صالحني الآن

شيء مؤلم أن تهبط الطائرة، ويسارع الجميع إلى فتح هواتفهم لتلقي المكالمات، بينما أنت لا أحد يهتم لأمرك، شيء مؤلم أن تملك وقت فراغ طويل، لكنك تقضيه بعزلة، لأن لا أحد يهتم لأمرك، شيء مؤلم أن يمضي عليك عيد الميلاد وحيدًا، لأن لا أحد يهتم لأمرك.

شيء مؤلم أن يذيع الراديو أغنية جميلة لكنك لا تملك شخصًا تهديها إليه، أن ينقل أحدهم إليك خبرًا سارًّا، لكنك لا تملك شخصًا تركض نحوه لتعانقه، أن ترهقك الأيام كثيرًا لكنك لا تجد كتفًا تسند إليه رأسك، أن تخلد للنوم ليلًا دون أن يهمس أحد في أذنك: «تغطَّ باللحاف جيدًا»

ثم التقيا بعد أعوام طويلة،

صدفة في أحد مطاعم المدينة،

ورغم أن كلًا منهما بات لديه أبناء وبنات،

إلا أنها كانت لاتزال تراه طفلًا في عينيها،

وكان هو لا يزال يراها تلك الصبية الصغيرة،

قال لها في قلبه :

«أنت كل أشيائي الجميلة»

همست له في قلبها قبل أن تهرول مبتعدة:

«وأنت أيضًا كل أشيائي الجميلة».

أينما كنت الآن قل أحبك وأعدك أن أسمعها

فأينما تكون أيها الإنسان، كلام الحب دائمًا يصل

وما زلت أحزن كثيرًا على أولئك الذين يتمسكون بشخص سيئ، معتقدين أن الوقت كفيل بإصلاحه، من أساء إليك فارحل عنه، ولا تلتفت إليه، وتذكر أن الله لن ينساك، وأنه سيضع لك في قارعة الطريق يومًا، سعادة تنسيك كل شيء آلم قلبك المسكين.

يقل اهتمامه فجأة؟
تأكدي أن في الأمر فتاة

هل أخبرك بما سيحدث لكِ؟
سيهجركِ عما قريب

هل أخبركِ بما سيحدث له؟
سيعود إليكِ حين تهجره تلك الفتاة.

هل أخبركِ بما يجب عليكِ أن تفعليه؟
احتفظي دومًا بقناني العطر الفارغة،
لتحطمي بها رأسه حين يعود إليك
طالبًا منكِ المغفرة والسماح.

تبًّا ما هذا

إذا كنتم جميعكم مساكين وأوفياء

فأين هم الخونة والأشرار إذًا؟!

ذات يوم جئتني ضعيفًا قلت لي بأنهم آذوا قلبك المسكين، حينها تركت كل شيء في يدي، وبقيت معك حتى رأيتك تبتسم وتقف على قدميك من جديد، وعندما جئتك لاحقًا أخبرك بأنك وجميع الأشياء الباقية تؤذون قلبي المسكين: ابتسمت في وجهي ثم رحلت عني بعيدًا. أتعلم ؟! منذ ذلك اليوم، وإلى هذه اللحظة، لا زلت أجهل الذنب الذي اقترفته في حياتي، حتى يعاقبني الله بشخص مثلك !

الخيانة لا تؤذي أحدًا،

وغالبًا ليست الخيانة ما تبكينا،

بل ذلك الأمان الذي يغادرنا،

وتلك الثقة التي نفقدها حتى في أنفسنا،

هناك نوع من الأشياء

لا يعود إلى حالته القديمة بعد أن يتحطم،

هناك نوع من الأشياء

لا ينفع معه الاعتذار أو الندم..

ليتهم أدركوا ذلك قبل أن

يجعلوا الاختيار علينا صعبًا،

فأسوأ قرار قد نختاره يومًا هو

الرحيل عن شخص أحببناه،

لأننا أصبحنا ناضجين بما فيه الكفاية لندرك

أن الحب وحده، ليس سببًا كافيًا للبقاء!

عذرًا ولكن

أن تخدعني لا يعني أنك

شخص ذكي جدًّا

بل ربما يعني أنه

ينقصني الكثير من الخبث

حتى لا يتمكن معتوه مثلك

من خداعي مرة أخرى

أخبرهم أن مكانك ليس هنا عندما تشعر فعلًا بأنك خلقت لشيء آخر، أرجوك لا ترضَ بأن تكون أقل من ذلك الشيء الذي لطالما كنت تحلم به كل يوم، وتذكر أنك لا تعيش داخل شريط فيديو حيث في استطاعتك أن تبدأ من جديد في كل مرة، فالعمر أقصر بكثير مما تظن، كن ما تريد الآن أو صدقني لن تكون أبدًا.

أعلن مسؤوليتي عن كل ما أقوله لك،
ولست مسؤولة عن أي تفسير،
قد يخبرك به عقلك المريض جدًّا،
لهذا عندما تتخيل أني أسأت لك،
تخيل أيضًا أني تأسفت منك،
فهذا أفضل بكثير،
من انتظار عذر لن أقوله أبدًا.

ولأنهم خذلوك يا قلبي
فإنك لن تثق بأحد
وستظل طويلًا تعادي
كل من يحاول الاقتراب منك

يحدث معي كثيرًا:

أن أستيقظ في منتصف الليل، أبحث عن هاتفي في ظلام الغرفة، أفتش بعين مغلقة، وأخرى نصف مفتوحة، عن رسالة منك تخبرني فيها، بأنك عدت من جديد، وأنك لن تتركني هذه المرة أبدًا.

لا شيء أشد رعبًا

من أن تحترق جميع أحلامك،

وأنت لا تملك وسط ذلك الدخان

إلا أن تتظاهر بأن لا شيء يحدث.

ولا شيء أقسى على قلبك

من أن يجبرك الكبرياء على الضحك،

في الوقت الذي تشعر فيه برغبة قاتلة في البكاء.

عندما أقرر الانتقام منك لن أوذيك،
بل سأعاملك بحب مبالغ به ثم أهجرك،
هكذا فقط أضمن أن يمتد عذابك طويلًا.

إن منظري الأنيق جدًّا، وهذه الابتسامة التي لا تفارق وجهي، وتلك النكات التي قد ألقيها من وقت إلى آخر، وجميع الأشياء التي تراها وتوحي لك أني بخير، كل ذلك ليس إلا خدعة، حاول أن لا تدعها تنطلي عليك لو أننا التقينا في مكان صدفة، فنحن النساء لا نثرثر كثيرًا، ولا نضحك بأصوات مرتفعة، ولا نتأنق بشكل مبالغ به، إلا لنصرف أنظار المتطفلين عن جروح تنزف في داخلنا.

عندما يصرخ رجل في وجه فتاة ثم لا يراها تبكي،
قد يعتقد أنها لم تتأثر كثيرًا بالصراخ،
وأنها فتاة قوية، لا تعترف بالبكاء،
لكن صدقني هي تبكي وبشدة
لكن في الظلام!
ليس لشيء عدا أن الأنثى
منذ فجر التاريخ،
عرفت بالكبرياء!

أعترف لك بأني
أشعر بخيبة أمل كبيرة
حين أراك تبتسم
ونحن في حالة فراق
ليس حقدًا
بل فقط لأني
لم أكن أتخيل
بأن في مقدورك أن
تكون سعيدًا من دوني

هل حدث لك ذات مرة أن اشتقت لشيء لم يحدث معك أبدًا؟!
أو أنك شعرت بالحنين إلى أشياء لم تقع معك إلا في خيالك الواسع؟!

يحدث معي دومًا أن أشتاق لمنزلنا الذي حلمنا دومًا بامتلاكه، وإلى عقد نكاح كانت أكبر أمنياتي أن يضم اسمي واسمك، وإلى سيارة قديمة تأخذني بها بعيدًا عند نهاية كل أسبوع، ثم ولأنك لا تملك مالًا كثيرًا، نكتفي بمشاهدة البضائع من خلف زجاج المحلات التجارية، وحين تعتقد أني حزينة لأن ظروفك لا تسمح لك بأن تشتري لي أسورة ذهب جميلة، أهمس لك في أذنك:

«لا بأس أنت كل أشيائي الجميلة»

أشتاق إلى مقعدين في طائرة تسافر بنا نحو مدينة لا نعرف أحدًا فيها، وإلى سيارة أجرة يثرثر سائقها معنا بينما لا نصغي إلى أحاديثه، ليس لأننا لا نفهم لغته العربية المكسرة، بل لأننا منشغلان في المقعد الخلفي بتبادل الكلمات والقبل..

أشتاق إلى نزهة معك أمام بحيرة صغيرة، وإلى مطر يهطل فجأة علينا وإلى شجرة ضخمة نركض نحوها كفأرين مذعورين نختبئ تحتها ريثما يخف المطر!

أشتاق إلى وجبة طعام أعدها لك، وحين تنتهي منها تخبرني بأنها كانت لذيذة..

وعندما أستعد لتناول طعامي تأخذ الطبق من أمامي وتأكله على عجل، حتى لا أكتشف أن الطعام الذي أعددته كان سيئ المذاق، لأنه فاتني أن أضيف عليه الملح.

أشتاق كثيرًا لأبنائنا الذين أنجبتهم منك في أحلامي،

إنهم طفلان وطفلة يشبهونك في كل شيء إلا في عينيك،

فعيناك ليس لهما مثيل في هذا العالم كله،

ليس لأنهما رائعتان جدًّا،

بل لأن فتاة مثلي كانت تسكن فيهما يومًا!

«الحكاية الأخيرة، للفتاة التي
ينتهي اسمها بتاء مربوطة»

بعض الصداقات نعمة
والبعض الآخر تكفير ذنب

في إنجيل الهوى، قبل مئات ألوف الأعوام، كتب أحدهم هذه
الجملة ثم اختفى:
«في دين العشق لا يجوز الفراق»

١

«هاجر»

الثلاثاء،

٢:٤٧ فجرًا،

«بعد انتهائي من الكتابة»

بعد انتهائي من الكتابة خبأت حزمة الورق داخل أحد الأدراج:

- نومًا هنيئًا - همست لها قبل أن أغلق عليها الدرج -

أغلقت الستائر، أطفأت المصابيح، ثم انزلقت تحت اللحاف، وقبل أن أغط في نوم عميق، تمنيت لو أن أحدهم يهمس في أذني:

«تصبحين على خير»

ثم فكرت قليلًا:

إن كنت تملك شخصًا يتمنى لك قبل النوم أن تصبح على خير، فأنت شخص محظوظ جدًّا، إن كنت تملك شخصًا يبدي استعدادًا لسماع ثرثراتك الفارغة لساعات طويلة دون أن يقاطعك أو يشعر بالملل منك فأنت شخص محظوظ جدًّا، إن كنت تملك شخصًا يمكنك الاتصال به في أي وقت دون أن تفكر كثيرًا فيما إذا كان مشغولًا أم لا، فأنت شخص محظوظ جدًّا، وهذه الأشياء الصغيرة لا أحد غالبًا يعيرها انتباهًا، إلا حين يفقدها، وهذا أمر سيئ جدًّا!

أغمضت عيني، رأيتك في السواد، ونمت.

****

الثلاثاء،

١٠:٠٣ صباحًا،

«ثلاث مكالمات فائتة»

على شاشة الهاتف عندما استيقظت:

كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكانت هناك الإشعارات التالية:

«ثلاث مكالمات فائتة، ورسالة إنذار بقطع الخدمة إن لم أسارع بتسديد الفاتورة»

كان المتصل شخصًا قريبًا إلى قلبي، إنها هاجر: تلك الطالبة التي التقيت بها في السنة التحضيرية الأولى، عندما كنت أدرس في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، والتي أصبحت لاحقًا أفضل صديقة في حياتي، وبالمناسبة: هي الشيء الوحيد المهم الذي استفدته من خلال دراستي في الجامعة.

ليتني أعود للزمن الذي كنت لا أعرفك فيه:

كنت حينها فتاة لا تعرف الحب لذلك كنت فتاة سعيدة، لا أحمل همًا. ولا أفكر في أحد، أنام في الوقت الذي يهجم فيه النوم علي،

وعندما أستيقظ لا أسارع في إمساك هاتفي لأبحث فيه عن رسالة منك أو اتصال، كما لو أني شخص يعاني من إدمان حاد، يفتش في كل لحظة عن جرعة يهدئ بها أعصابه.

****

دعني أقص عليك قصتي مع هاجر:

«ثماني سنوات تقريبًا إلى الوراء

جامعة الملك عبد العزيز

محاضرة الكيمياء

خطة باء»

- هل هذا المقعد محجوز لو سمحتِ؟!

سألتني إحدى الطالبات بصوت منخفض، وهي تشير بإصبعها نحو المقعد المجاور لمكان جلوسي، ولأني لم أكن أحب التحدث إلى الغرباء، حتى ولو كان سؤالهم عاديًّا، فقد اكتفيت بتحريك رأسي بإشارة تعني «لا» من غير أن أفتح فمي.

- شكرًا - قالت ذلك وهي تجلس فوق الكرسي.

حركت رأسي لها بإشارة تعني «عفوًا»، وجعلت أحاول التركيز مع ما تقوله الأستاذة التي كانت تثرثر طويلًا دون أن يفهم أحد شيئًا منها.

بعد قليل من الوقت التفتت نحوي تلك الطالبة وهمست:

- لو سمحتِ

لم ألتفت نحوها لسببين: الأول هو لأني كما قلت لا أحب التحدث إلى الغرباء، والسبب الثاني هو لأني لم أكن أريد الخروج مطرودة من القاعة، فهذه الأستاذة تعشق طرد الطالبات من الصف، كما لو أنها كانت تحلم منذ الصغر، أن تصبح في المستقبل حكم مباراة، يقوم بطرد اللاعبين على أقل خطأ يقترفونه!

- لو سمحتِ - كررت الطالبة بصوت منخفض -

ولأني لم ألتفت لها للمرة الثانية وبقيت أحاول التركيز مع ما تقوله الأستاذة، قالت:

- هل أنتِ بكماء؟!

حركت رأسي نحوها: ماذا؟!

- أوه جيد في استطاعتك التحدث، اسمي هاجر وأنتِ؟! - قالت ذلك وهي تمد يدها لتصافحني-

- هل هذا مكان مناسب للتعارف برأيك؟! - سألتها من غير أن أصافحها -

سحبت الطالبة يدها المعلقة في الهواء وبررت:

- لا، ولكني أشعر بقليل من الضيق، وأرغب في التحدث

كنت سأقول «وما شأني أنا» لكن الأستاذة صرخت وهي تنظر نحونا:

- أنتما هناك، أكملا حديثكما خارج الصف!

ولأني لم أكن أريد الرسوب في المادة، لم أعترض على قرار الطرد، وكل ما فعلته في ذلك الوقت هو أنني دفعت بجسدي إلى الخارج وأنا أحاول قدر الإمكان أن أمسك دموعي لكي لا تسقط أمام بقية الطالبات.

وحين أصبحنا في الممر:

- أشعر بالجوع - صرحت تلك الطالبة - توجد كافتيريا رائعة بالقرب من هذا المبنى ما رأيكِ في الذهاب إليها؟!

لم أصدق ما سمعته للتو لذلك انفجرت في وجهها:

- أنا مطرودة بسببك، وأنتِ بكل برود تقترحين علي الذهاب معك إلى الكافتيريا؟!

حكت رأسها كما لو أنها لم تجد سببًا لغضبي:

- هيا بربك، سأدفع عنكِ قيمة الفطور، لو أنكِ ذهبتِ معي!

صرخت:

- لم يسبق لأي معلمة أن طردتني من قبل، وأنتِ بكل برود تتحدثين كما لو أنكِ لستِ السبب في خروجي مط ..

في هذه اللحظة بالضبط فتح أحدهم باب صف الكيمياء:

- أنتما هناك ما هذا الإزعاج هاه؟!

سألت الأستاذة بغضب وهي تنظر نحونا من فوق إطار النظارة.

ثم ولأنه كان من الواضح لها، أنه أنا التي كانت تصرخ في ذلك الوقت، فقد قررت الأستاذة معاقبتي، فسمحت للطالبة بأن تعود إلى مقعدها، أما أنا فسأبقى مطرودة، لأني مزعجة وهمجية على حد قولها.

- لن أدخل - قالت الطالبة - سأبقى مع صديقتي هنا

ارتفع الدم إلى وجه الأستاذة، بسبب الإحراج الذي تعرضت له، ثم ولكي تحافظ على ما تبقى لها من كرامة أمام بقية الطالبات، قالت بصوت هادئ وهي تنظر باتجاه الطالبة:

- حسنًا كما تشائين ابقي في الخارج، أما صديقتك فسأسمح لها بالدخول.

نظرت الأستاذة باتجاهي:

- تستطيعين العودة إلى مقعدك.

في الحقيقة كنت مترددة: أريد الدخول، وفي الوقت ذاته لا أريد أن أتخلى عن هذه الطالبة غريبة الأطوار، فمع أنها السبب في طردي، إلا أنها فعلت للتو شيئًا لطيفًا معي، فهي لم تتخلَّ عني رغم علمها بأن موقفها ذاك سيكون سببًا في رسوبها بالمادة.

كنت سأقول للأستاذة بأني لن أدخل، لكن الطالبة همست لي من ورائها: «ادخلي»

ولأننا في بعض الأحيان، نحتاج إلى كلمة من شأنها أن تسكت ضمائرنا لاحقًا، فقد تشبثت بكلمتها حين قالت لي «ادخلي»، وسرت نحو الصف..

لكن مع كل خطوة كنت أخطوها كنت أعرف في قرارة نفسي بأني سأندم لاحقًا، لو أنني تخليت عنها، لذلك توقفت فجأة ثم نظرت إلى الخلف نحو الطالبة:

- قلتِ إن اسمك هاجر صحيح؟!

- صحيح

- هل أنتِ واثقة من أنها كافتيريا رائعة؟!

- نعم واثقة!

التفت نحو الأستاذة وقلت:

- وأنا أيضًا لن أدخل.

ومنذ ذلك الوقت أصبحنا صديقتين مقربتين جدًّا، أما تلك المادة فليس مهمًّا أن أذكر لك ما حدث لنا فيها، فمن المؤكد أنك فهمت من تلقاء نفسك أننا أعدنا حملها للترم القادم!

جميع مشاكل المرأة تكمن في أنها لا تجد من يصغي إليها!
لو وجدت المرأة من يستمع لها لانتهت إذًا جميع مشاكلها.

٢

«فرصة لأراك من بعيد»

اليوم التالي،

الأربعاء،

٩:٥٩ مساء،

«رنين»

رحت أركض خلف رنين الهاتف ..

«هاجر» هذا ما كان مكتوبًا على الشاشة

ما كدت أفتح الخط، حتى جاءني صوتها غاضبًا:

- اتصلتُ عليكِ البارحة ثلاث مرات لماذا لم تجيبي؟!

- أوه آسفة، كنت نائمة حين اتصلتِ، ونسيت أن..

- بربك ما الذي جرى - قاطعتني - هل حدث لك سوء؟!

هاجر: هي الشخص الوحيد الذي في إمكانه التعرف على حالتي النفسية من خلال صوتي، وهي الشخص الوحيد أيضًا الذي لم أكن لأخفي عليه سرًّا من أسراري، وبالمناسبة هي تعرف قصتي معك، وهي أيضًا من كان يقف إلى جانبي في تلك الأوقات التي كنت أحتاج إليك فيها كثيرًا!

- قصة غريبة وقعت معي البارحة عندما كنت في المكتبة، لن تصدقيها عندما أرويها لكِ!

- تكلمي أسمعك، ماذا حدث؟!

ولأن هناك أشياء تفقد لذتها حين نرويها عبر الهاتف، قررت أني سأخبرها حين ألتقي بها:

- سأخبرك حين نلتقي - ثم انتقلت سريعًا إلى موضوع آخر حتى لا تصر فأخبرها بالقصة رغمًا عن أنفي - ماذا كنتِ تريدين حين اتصلتِ البارحة ثلاث مرات؟!

- آه نعم، سأذهب غدًا إلى معرض الكتاب، وبما أنك أصبحتِ تحبين قراءة الكتب، فكرت في أنكِ ستكونين سعيدة لو أني عرضت عليكِ المجيء معنا ما رأيك؟!

ضحكت كثيرًا حين سمعت هذا الاقتراح، لأن آخر شخص في الدنيا أتخيله يحمل كتابًا في يده هو هاجر:

- ولماذا تريدين الذهاب إلى هناك؟!

- أوه لا، ليس أنا من يريد الذهاب، إنها أسيل.

- ومنذ متى تهتم أختك الصغرى بالكتب؟!

- أسيل لا تريد شراء الكتب التي تقرئينها أقصد الروايات، فهي ليست معقدة نفسيًا اطمئني، كل ما في الأمر أنها التحقت مؤخرًا بأحد أقسام التصميم في الجامعة، وتريد الذهاب غدًا لشراء بعض كتب التخصص والتي لن تجدها إلا هناك على حد قولها!

- أخبرتك ألف مرة أن من يشترون الروايات ليسوا معقدين نفسيًا هاجر!

- أمزح معك، بربك ألم تعتادِي على سخافاتي، هاه ماذا تقولين هل سترافقيننا غدًا؟!

ثم أضافت: «قولي نعم أرجوكِ».

- سأفكر في الأمر، في أي ساعة سنذهب لو أني وافقت؟!

- سأصطحبكِ عند الخامسة.

****

وضعت الهاتف جانبًا، وعندما نظرت إلى الخلف كانت صورتك على الغلاف تحدق فيّ، كما لو أنها تريد أن تقول لي شيئًا، ورغم أني متأكدة من أني كنت قد وضعت كتابك داخل حقيبة يدي عندما انتهيت من قراءته، إلا أني لم أفكر كثيرًا بالطريقة التي تمكن فيها الكتاب من الخروج من داخل الحقيبة.

أمسكت الهاتف فورًا وعاودت الاتصال بهاجر:

- موافقة سآتي معكم.

- لماذا كل هذا الحماس في صوتك؟!

مضغت ريقًا، لم أعرف كيف أبرر لها حماسي، لن أكذب لأنها ستكتشف الكذبة حتمًا:

- هذه أيضًا سأخبركِ بها حين ألتقي بك.

****

أيها الكاتب:

لست متيقنة مما إذا كنت سوف أراك غدًا في معرض الكتاب أم لا، لكن سأفتش عنك هناك، فهذا المكان الوحيد الذي يُحتمل أن أعثر عليك فيه.

قررت أني سأعيد الكتابة من جديد، سأكتب لك منذ اللحظة التي عثرت فيها على كتابك، وإلى اللحظة التي طلبت مني هاجر فيها أن أرافقها إلى معرض الكتاب، وفي حال استلمت أوراقي، أريدك أن تمزقها أو أن تجعلها طعامًا للنار، بعد أن تنتهي من قراءتها!

وهكذا سحبت أوراقًا جديدة، ثم فكرت قليلًا وكتبت:

«لم أكن حينها أفكر بشيء إلا بك كعادتي، عندما كنت أتجول وحيدة في أروقة إحدى المكتبات، أفتش عن كتاب جيد يشعرني بالأمان في هذه الغربة.

لا.. لم أغادر البلاد، لكن ثمة وطن كبير غادرني فأنت لم تكن لي حبيبًا وفقط، بل كنت وطنًا كبيرًا ينتمي عالمي الأعظم إلى خلايا ضلعه الأعوج.

قبل أن نفترق لم أكن أحب القراءة أتذكر؟!

لكني أصبحت أحبها كثيرًا، لأنها الشيء الوحيد الذي بات يذكر بك، والمكان السري الذي أستطيع أن أقابلك فيه، والزمان العكسي الذي يعيدني إليك...».

الإنسان مخلوق وهمي، حتى إذا وقع في الحب أصبح حقيقيًّا

٣

«آتية إليك .. فكن هناك من أجلي»

اليوم التالي،

الخميس،

٤:٥٥ مساء،

«بالطريق نحو المعرض ..»

- بربك ما كل هذه الأوراق التي جلبتِها معكِ؟!

سألتني هاجر، حين جلست إلى جوارها في المقعد الخلفي لسيارة سائقها الخاص، لم أكن بعد قد أخبرتها عما حدث لي في المكتبة، لذلك أبدت استغرابًا حين رأتني أحمل في يدي الأوراق.

في الحقيقة كنت سأخبرها في السيارة لو لم تكن أختها الصغرى معنا، لذلك همست في أذنها:

- سأخبركِ حين نصل!

ثم أخبرتهما بأن عائلتي سوف يقومون بالالتحاق بنا إلى هناك، ونقلت إليهما رغبة والدتي في أن تنضما إلينا بعد المعرض لتناول وجبة العشاء، فوافقتا على ذلك.

****

طوال الطريق كان قلبي ينبض بقوة، كما لو أنه حصان يندفع نحو معركة، لم أكن أعرف كيف سأعطيك الأوراق، لكن ما أعلمه جيدًا هو أنني لن أستطيع الاقتراب منك، لأن عينيك بحر ولأن البحر غدار، ولأني لا أعرف السباحة، ولم أكن أملك زورق، وليس عندي طوق نجاة.

دودة الكتب حرامية

****

حين وصلنا إلى معرض الكتاب:

ذهبت أخت هاجر الصغرى أسيل، للبحث عن كتب التخصص التي ترغب في شرائها، بينما أمسكتني هاجر من يدي، وأجلستني بالقوة فوق أحد الكراسي، وراحت تجلس أمامي كما لو أنها محقق في الادعاء العام يحقق في قضية فساد كبرى.

ضربت بيدها على الطاولة الدائرية الصغيرة التي كانت تفصل بيننا:

- بربك، لماذا كل هذا الارتباك في وجهك؟!

- إنه هو - ثم قلت اسمك وبكيت -

اعتدلت هاجر في جلستها، وبدأت تأخذ الموضوع بجدية أكبر:

- ما به ؟! - ثم أضافت - لقد أصبحتِ في مرحلة أخرى الآن، ومن المفترض أنك قد تجاوزتِه لماذا تتذكرينه الآن؟!

دودة الكتب حرامية

أخرجت لها كتابك من خفيبة يدي، وأشرت بإصبعي نحو وجهك:

- انظري!

ثم أخبرتها بكل شيء: قلت لها إنك بعثت لي برسالة، تخبرني فيها بأنك لا تزال تحبني وأنك تأسفت لي فيها عن خطأك حين سمحت للفراق بأنّ يشق له طريقًا بيننا.. أخبرتها بأنه على الرغم من أنك لا تحب المؤلفين الذين يضعون صورهم على أغلفة كتبهم، إلا أنك قمت بوضع صورتك على غلاف كتابك؛ لكي تُسهل عليّ أمر العثور عليه.

ثم قلتُ لها ما أنوي القيام به:

- الأوراق التي أحملها معي، هي رسائل كتبتها له، أريد منه أن يقرأها، لذلك تحمست للمجيء معكِ إلى هنا!

- هل أخبرتِه في الرسائل عن كل شيء حدث معكِ بعد انفصالكم؟!

- لا، اطمئني لم أخبره، فمن الأفضل أن لا يعرف!

- هاتِي الأوراق!

كنت أخشى أن تقوم هاجر بتمزيقها:

- ماذا ستفعلين بها؟!

- سأقرؤها فقط!

دودة الكتب حرامية

أخذت هاجر الأوراق من يدي، وراحت تقرؤها بتوتر واضح على وجهها، وحين انتهت من قراءتها التي استغرقت ساعة كاملة، وضعت الأوراق على الطاولة، وصمتت.

****

أقسم لك إني في ذلك الوقت كنت ضعيفة جدًّا، مثل حشرة

تحتضر، وتتمنى من الله أن يهبط عليها حذاء ليحطمها ويخلصها من هذا العذاب، ولو أن هاجر قامت بتمزيق حزمة الأوراق أمامي في تلك اللحظة، وأمرتني بالعودة إلى البيت، لكنت قد نفذت أمرها من غير اعتراض، لكنها لم تتكلم، وبقيت تحدق في حزمة الأوراق صامتة لفترة طويلة.

- حسنًا يجب أن تقولي شيئًا - قلت ذلك خائفة وأنا أنظر إليها - لكنها لم تتحدث أيضًا وظلت صامتة كما لو أنها تفكر في أمر ما، وحين طال صمتها أكثر قلت:

- أعلم أني استغرقت وقتًا طويلًا حتى أنساه - ثم مددت يدي وسحبت حزمة الأوراق من فوق الطاولة - أعتقد أني كنت مخطئة حين فكرت بالكتابة إليه، كان يجب علي أن لا أضعف، سأمزق الأوراق حين نعود إلى البيت، ولن أفكر في الأمر مرة أخرى أعدك!

- لا - قالت هاجر - لن يحدث هذا، بل ستعطينه الأوراق.

كنت أعتقد أنها تهزأ بي، أو تضعني في موقع الاختبار لتتحقق مما

دوحة الكتب حرامية

إذا كنت صادقة فيما أقوله لها، أم أني أكذب عليها، لذلك تمسكت برأيي:

- لا لا، إنها فكرة سيئة مثلما قلت لكِ، سأمزقها حين أعود إلى البيت!

- اسمعي - قالت هاجر بجدية - إنه الآن كاتب، اكتبي له واطلبي منه أن ينشر كتاباتك اجعليه يصفع كل رجل عبث يومًا في قلب فتاة، دعيه ينتقم لكِ ولي، ولجميع النساء.

- لكن كتابتي سيئة ولا أعتقد أن ..

- سيتصرف - قاطعتني هاجر - إنه كاتب وسيجيد التصرف، هيا ليس هناك وقت إضافي للتردد، لا تخافِي سيضع هو اسمه عليها، ولن يعرف أحد من عائلتك أنكِ من قام بكتابتها!

دودة الكتب حرامية

****

لم أكن أعرف إن كانت محقة فيما تقوله أم لا، هل كان رأيها صوابًا، أم أنه لن يساعد إلا في نزف مزيد من الجراح، لكن كما قلت لك، كنت حينها ضعيفة، ولا أعرف ماذا أفعل:

- حسنًا أريد ورقة إضافية حتى أكتب إليه - قلت - وأريد قلمًا أيضًا!

غابت هاجر من أمامي وحين عادت كانت تحمل في يدها مزيدًا من الأوراق البيضاء، وتحمل في اليد الأخرى قلمًا.

أمسكت القلم، قربته من الأوراق، فكرت طويلًا في الكلام الذي سأكتبه لك، بيد أني لم أتمكن من التوصل إلى شيء مناسب:

- لا أستطيع أن أكتب.

- لماذا - سألتني هاجر -

- لأنك تحدقين بي - قلت بصوت أقرب إلى البكاء - وهكذا لا أستطيع التركيز على فكرة!

نهضت هاجر وأخبرتني أنها ستذهب للبحث عنك، ريثما أنتهي من الكتابة:

- سأبحث عنه وأعود إليكِ، نصف ساعة تكفيك للكتابة؟!

دودة الكتب حرامية

- لا أدري نعم ربما تكفي.

وقبل أن تذهب هاجر للبحث عنك أخبرتها بأن لا تبني آمالًا كبيرة في العثور عليك، لأنني لست متأكدة من وجودك في المعرض، ثم سألتها:

- ماذا سنفعل لو أنك لم تجديه؟

- لا بأس سأبحث عن الدار التي قامت بنشر كتابه وأطلب من أحد الموظفين هناك أن يقوم بتسليمه حزمة الأوراق لا أعتقد أنهم سيرفضون - ثم سألتني - هل تعرفين اسم الدار التي قامت بنشر كتابه؟!

حركت رأسي: لا أعرف!

ولأن هاجر لم تكن من النوع الذي يستسلم بسهولة، فقد قامت بانتزاع كتابك من داخل حقيبتي وراحت تفتشه كما لو أنها كلب حراسة قاموا بتدريبه جيدًا على الكشف عن الأشياء الممنوعة:

- لا بد أن يكون اسم الدار مكتوبًا في مكان ما من الكتاب - ثم ابتسمت بثقة كبيرة - هه وجدت اسم الدار، «الأدب العربي»، سأفتش عنها في محرك البحث!

دودة الكتب حرامية

٤

«ابتسم لأن الأرض في حاجة إلى ابتسامتك»

قربت القلم من الورقة وكتبت:

«أيها الكاتب، أعلم أن كل ما كتبته لك ليس جيدًا للقراءة، وأعلم أنه لا يرتقي لمستوى النشر، ولكن إذا كنت لا تزال حقًّا تحبني، أطلب منك أن تنشر هذه الأوراق، شرط أن لا تضع اسمي عليها.»

دودة الكتب حرامية

دع العالم يدرك، أن المرأة حين تحب بمرارة، لا يعني أنها سيئة، وأنها حين تحاول التمسك بمن تحب، لا يعني أنها سيئة، وحين تحارب من أجل الزواج بمن تحب، لا يعني أنها سيئة، فخديجة عليها السلام، أحبت رسول الله، وهي من طلبت منه الزواج قبل أن يكون رسولًا، وهذا لم يجعل منها امرأة سيئة!

أتعلم عندما كنا معًا كنت أحبك كثيرًا، ولفرط ذلك الحب، كنت أخشى أن أقترف ذنبًا فيعاقبني الله بحرماني منك، واليوم لازلت أحبك أيضًا لكن الفرق هو أني أصبحت أخشى أن أقترف ذنبًا فيعاقبني الله برؤيتك، ليس لشيء عدا أني لن أعرف حين أراك كيف سأتصرف، هل أبتعد عنك، أم ألبي نداء قلبي وآتيك ركضًا.

كن كاتبًا وأعدك أني سأقرأ لك، وسأنتظر كتبك القادمة بفارغ الصبر، لا تدع أحدًا يغضبك وابتسم لأن كوكب الأرض في حاجة إلى ابتسامتك، ولأن الحياة لا يسعها أن تكون بخير من غير أن تبتسم، أتمنى لك مزيدًا من الكلمات الرائعة والاستعارات المدهشة، والروايات التي يستمتع بقراءتها العالم، وسأطلب من الله دومًا أن يمنحك مزيدًا من القراء الذين يحبونك، ويعتنون بك في غيابي!

****

لم تنتهِ الحكاية، سنلتقي يومًا، إن لم يكن في الأرض فهناك في السماء، وحينها سأخبرك بأني ما نسيتك لحظة، وبأني لم أتوقف عن حبك يومًا، وبأنك كنت دائمًا وأبدًا:

«كل أشيائي الجميلة».

٥

«أخيرًا انتهيت»

الخميس،

٧:٠٩ مساء،

«الطفلة الصغيرة»

بعد ساعة وخمس دقائق بالضبط عادت هاجر:

- لقد وجدته، إنه مستغرق في التوقيع على روايته، هل انتهيتِ من الكتابة إليه؟!

حركت رأسي: أخيرًا انتهيت!

جلست هاجر أمامي، وقامت بقراءة الورقة التي قمت بكتابتها قبل قليل:

- هذا جيد، لو أنه يحبك فعلًا فسيقوم بنشرها، هيا لنذهب ونعطِه الأوراق.

٥

«أخيرًا انتهيت»

الخميس،

٧:٠٩ مساء،

«الطفلة الصغيرة»

بعد ساعة وخمس دقائق بالضبط عادت هاجر:

- لقد وجدته، إنه مستغرق في التوقيع على روايته، هل انتهيتِ من الكتابة إليه؟!

حركت رأسي: أخيرًا انتهيت!

جلست هاجر أمامي، وقامت بقراءة الورقة التي قمت بكتابتها قبل قليل:

- هذا جيد، لو أنه يحبك فعلًا فسيقوم بنشرها، هيا لنذهب ونعطِه الأوراق.

حين نفارق شخصًا أحببناه، فإننا لا نستطيع الوقوف أمامه، إلا إذا شفينا تمامًا منه، ولأني لم أشفَ منك بعد، فإنني لن أستطيع الوقوف أمامك، وبالتالي لن أستطيع تسليمك الأوراق بنفسي:

- لن يكون من السهل أن نلتقي، دعينا نفكر بطريقة أخرى.

- إذًا سأذهب وحدي - قالت - سأعطيه الأوراق وأعود سريعًا!

- لا؛ أخشى أن تخطئي وأنتِ أمامه، فيكتشف الأمر.

ثم فجأة، وبدون سبب، سألت هاجر: متى ستأتي عائلتك؟!

نظرت إلى ساعة يدي: من المفترض أنهم وصلوا منذ عشر دقائق

- ثم سألتها - بماذا تفكرين؟!

فابتسمت بمكر ..

****

ستقوم طفلة صغيرة بتسليمك الأوراق، لن تتكلم معك كثيرًا، لن تفصح لك عن هويتها، بيد أنك لو نظرت إلى عينيها قليلًا فستعرف من تكون.

****

وقبل أن تذهب الطفلة الصغيرة إليك اقتربت منها، متظاهرة بأني أريد أن أصلح لها قميصها، بينما في الحقيقة كنت أضع في جيب بنطالها ورقة نقدية من فئة العشرة ريالات، ثم همست لها في أذنها من غير أن تنتبه علينا هاجر: أريدكِ أن تعطيه هذه الورقة النقدية، أرجوكِ لا تنسي.

حركت رأسها كما لو أنها فهمت أني أبوح لها بسر خطير:

- لن أنسى.

ثم راجعت معها الخطة بصوت مرتفع:

- لا تخبريه عن اسمك، لا تتحدثي معه كثيرًا، وحين تعودي إلينا تحققي من أنه لا يسير خلفك - ثم سألتها من باب الاختبار - ماذا ستقولين له عندما يسألك عن الشخص الذي أعطاكِ هذه الأوراق؟!

تدخلت هاجر متضجرة: ستقول بأن الذي أعطاها الأوراق فتاة، وحين يسألها أين هي ستقول له بأنها ذهبت، ولن تخبره عن مكاننا، أو أي شيء قد يشير إلى هويتك، بربك يكفي لقد أعدت عليها الخطة ألف مرة، ثِقِي بها ودعيها تذهب، لن تفسد الأمر.

وهكذا أخذت الطفلة الصغيرة مني حزمة الأوراق، وتقدمت نحوك، بينما اختبأت أنا وهاجر نراقب ما سيحدث من بعيد.

****

في تلك الورقة النقدية كتبت لك شيئًا، لم أكن أريد لهاجر أن تراه في ذلك الوقت، لأنها لو عرفت بالأمر كانت ستمنعني من إخبارك به، فهي لا تريدك أن تعرف، حتى لا تحزن كثيرًا على حد قولها، لكن بالنسبة لي أعتقد بأنه قد حان الوقت، لتفهم كل شيء.

****

الباب الثالث

«الكاتب»

كانت امرأة من السماء
وكنت رجلًا تسكنني براكين الأرض

قالت: كيف يأتيك الشعر،وكيف تنظم القصيدة ؟!

قال: لا أعلم، ولكن أنظر إلى عينيكِ وأتكلم

قالت لتداري خجلها:

- هل أستطيع أن أكتب الشعر أنا أيضًا ؟!

قال: لا، فالقصيدة لاتكتب القصيدة.

١

«الحقيقة»

الجمعة،

الساعة: الثالثة

بعد منتصف الألم،

الفندق،

- الورقة النقدية!

هذا ما قلته حين انتهيت من قراءة حزمة الأوراق.

أمسكت هاتفي، أعدت تشغيله وأجريت مكالمة سريعة إلى مدير الدار، بيد أن هاتفه كان مغلقًا، نظرت إلى الوقت، «كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجرًا» لا بد أنه نائم تبًّا!

الآن فهمت لماذا كانت الطفلة تريد مناولتي تلك الورقة النقدية، ولماذا أعطتها لاحقًا إلى مدير الدار وطلبت منه أن يعطيها لي، يجب أن أحصل على الورقة النقدية مهما كلف الأمر!

****

وصلت إلى معرض الكتاب بعد أن فتحت أبوابه بساعة تقريبًا، وحين اقتربت من موقع الدار، وجدت المدير يقف مع إحدى الكاتبات، يتحدث معها بلطف ويظهر اهتمامًا واضحًا على كل كلمة تقولها له.

أغلب الرجال يتحولون إلى قطط أليفة، كلما تحدثوا إلى فتاة حسناء، لكن مدير الدار كان مختلفًا بعض الشيء، إنه يتحول إلى قط أليف فقط حين يقع على ضحية جديدة، وبعد أن يقنعها بتوقيع عقد مع الدار، يعود إلى حقيقته الصادمة!

لم أنتظره حتى ينتهي من الحديث معها، بل أقحمت نفسي بينهما، ورحت أحادثه أمامها، حتى لا يكون في مقدوره أن يعاتبني على انسحابي البارحة من المعرض، فمن المؤكد أنه لا يريد أن يبدو عصبيًا ووقحًا أمام تلك الكاتبة.

اقتربت من المدير وهمست له:

- أين العشرة ريال التي أعطتها لك الطفلة البارحة؟!

أخرج الحروف من تحت أسنانه، وهو يحادثني بصوت منخفض، وفي الوقت نفسه يحاول بصعوبة المحافظة على ابتسامته:

- هل هذا أمر يستحق أن تقاطع حديثنا من أجله، ثم أين اختفيت البارحة أنت هاه، ولماذا لم تجب على اتصالاتي؟!

كنت قد جهزت العذر مسبقًا، لأني أعرف بأن مدير الدار مثل الجمل لا يغفر ولا ينسى:

- البارحة تلقيت اتصالًا من أخي أخبرني فيه بأنهم نقلوا أحد أقربائي إلى المستشفى، بعد أن تعرض لحادث سير، كان حضوري ضروريًا، لأنهم كانوا في حاجة إلى أشخاص يتبرعون له بالدم، لذلك ذهبت ونسيت أن أخبرك.

الأقرباء دائمًا يكونون عذرًا جيدًا في الكذب: تبًا لو أن ما يقوله الإنسان يصبح واقعًا، لكنت الآن أعيش وحيدًا بدون أقرباء، لأني كنت قد أدخلت نصفهم إلى المستشفى، والنصف الآخر قد قتلتهم، في سبيل إيجاد أعذار مقنعة.

- أعد لي العشرة ريالات - قلت له في أذنه - وسأعطيك مئة ريال في المقابل.

لم يتمكن مدير الدار من مقاومة العرض، لذلك استدار ورفع قميصه قليلًا، ليخرج لي العشرة ريال من حقيبة سوداء صغيرة كانت مربوطة حول خصره، وقبل أن يمدها لي، طالبني بالمئة ريال، كما لو أنه يخاف من عدم التزامي بما قلته له.

****

عندما أصبحت تلك العشرة ريالات في يدي، جعلت أتفحصها من غير فائدة، إذ لم يكن مكتوبًا عليها شيء، لذلك عدت إليه وهمست في أذنه مقاطعًا حديثه مرة أخرى:

- هل هذه الورقة النقدية، هي ذاتها تلك التي أعطتك إياها الطفلة البارحة؟!

- لا!

- لماذا، أقصد أين وضعتها؟

لا أذكر؛ أعتقد أني اشتريت بها بعض الطعام، أو أني ناولتها لسائق الأجرة الذي أوصلني البارحة للفندق!

****

حين يقع هذا الكتاب، بين يديكِ وتقرئينه، أريدكِ أن تعرفي بأني لم أتمكن من معرفة ما كان مكتوبًا داخل الورقة النقدية، وأريدك أن تعرفي أيضًا بأني أتمنى في هذه اللحظة لو أني كنت الكتاب الذي بين يديكِ.

****

١

«أنت كل أشيائي الجميلة»

عدت إلى الرياض، حيث المدينة التي انتقلت إليها مؤخرًا، وما إن وصلت حتى سارعت في معالجة النصوص، لتصبح أكثر قابلية للنشر، وحين انتهيت منها قمت بتقديمها إلى مدير الدار، الذي أبدى اعتراضًا كبيرًا على نشرها!

لا تقلقِي ..

هو لم يعترض لأنها رديئة، أو لأنها لم تعجبه، بل على العكس تمامًا، لقد أعجب بها، وطلب مني لاحقًا، أن أقنعكِ بأن توقعي معه عقدًا بالاحتكار يمتد إلى عشر سنوات.

لقد اعترض لأنه كان ينتظر مني أن أقدم له في هذه الأيام رواية أخرى، سيكون اسمها:

«أبابيل».

****

وهذا ما حدث بيني وبين مدير الدار في المكتب:

- ما هذه الأوراق؟!

- كتابي القادم - قلت له ذلك، وأنا أمد له حزمة الأوراق -

وحين قرأ الخمس الصفحات الأولى، حرك رأسه يمينًا ويسارًا، مثل طفل يرفض أخذ حقنة في مؤخرته:

- لا لا لا، لم نتفق على هذا، لن يكون هناك شيء آخر غير «أبابيل» في العام القادم.

ولأن الحب هو أعظم القضايا التي قد يحارب من أجلها الرجل، ولأني أيضًا تخيلت خيبة الأمل التي ستشعرين بها، حين تعرفي بأني نشرت عملًا آخر، بدلًا من أن أقوم بنشر أوراقك، ضربت طاولة المكتب براحة يدي:

- سأنشر هذه الأوراق أولًا.

ثم قلت له: ينص العقد على أنك ستقوم باحتكار جميع أعمالي لمدة عشر سنوات قادمة، لكنك نسيت أن تضع في العقد، فقرة تلزمني فيها على أن أقوم باصدار رواية بعد كل فترة زمنية معينة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك إن لم تنشر هذه الأوراق في العام القادم، فلن أقوم بكتابة أي عمل آخر حتى تنتهي مدة العقد، وعندما أكون حرًّا، سأقوم بطباعة هذه الأوراق عند أي دار نشر أخرى.

سألني بغضب:

- هل تريد أن تنقطع عن الكتابة لمدة عشر سنوات؟! -ثم أضاف- هذا انتحار!

- أنت لا تترك لي خيارًا آخر، إن لم توافق، فسأتوقف عن الكتابة حتى ينتهي العقد!

أظن أنني أمسكته من اليد التي تؤلمه، فقد بدا ذلك واضحًا من خلال صوته الذي انخفضت حدته فجأة:

- لكننا اتفقنا على أن تكون رواية «أبابيل» في معرض الكتاب القادم، وليس شيئًا غيرها.

- أعلم ذلك، وأؤكد لك أنها ستكون على بريدك الخاص قريبًا، لقد انتهيت من كتابتها وهي جاهزة تمامًا، لكني أطلب منك أن تقوم بنشر هذه الأوراق أولًا.

ثم ولكي أقنعه أكثر، أخبرته بأني سأقوم بطباعتها من مالي الخاص، وبأني لن أطلب من الدار أن تدفع شيئًا:

- لم أطلب منك في حياتي أبدًا، اعتبر هذا الطلب الأول والأخير، وسأقوم بطباعتها على نفقتي الخاصة.

صمت قليلًا ثم قال:

- دعني أقمْ بقراءتها أولًا.

- لا بأس شرط أن لا تطالبني بحذف أي شيء منها، خصوصًا تلك الفصول التي قامت الفتاة بكتابتها.

وقبل أن أغادر المكتب أوقفني مدير الدار:

- هل هذه الأوراق، هي تلك التي جاءت بها الطفلة الصغيرة في معرض الكتاب؟!

لم أتكلم، ثم قال: هل تلك الفتاة التي كانت برفقتها، هي حقًا الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة؟!

حينها فتحت الباب، وقبل أن أدفع بجسدي إلى الخارج قلت له: هذا ليس من شأنك!

****

في اليوم التالي استدعاني مدير الدار إلى مكتبه، وحين التقينا صمت قليلًا ثم قال مبتسمًا:

- هل اخترت للجزء الثاني اسمًا، أم أنك ستحتفظ بالاسم الأول.

عرفت أنه وافق على نشرها، قلت له سعيدًا بذلك الخبر:

- بل سنطلق عليها اسمًا آخر.

لم أكن قد اخترت اسمًا للجزء الثاني، لأني لم أتوقع أن يوافق المدير بهذه السرعة، فكرت طويلًا كانت الأسماء تزدحم في رأسي، ولم أكن أعرف أي الأسماء أختار، كنت سأقول له بأني أريد أن أطلق عليها اسم: «الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة» لكني حين فتحت فمي، وجدت نفسي أقول: «أنت كل أشيائي الجميلة».

هناك أشياء لن تأتي مهما طال إنتظارنا لها، وأشياء قد تأتي ولكنها ستكون قد تأخرت كثيرًا، وأشياء حين تأتي لن نعيرها أنتباهًا، لأن أشياء أخرى ستكون قد نابت في قلوبنا عنها، لا شيء يبقى ثابتًا إلا أنت ..

فأنت في قلبي دائمًا
كل أشيائي الجميلة

إليكِ وإلى كل أولئك الذين سيخلدون إلى النوم بعد قليل أو أنهم ناموا منذ وقت مضى، ولم يقل لهم أحد كلمة حب «أنا أحبك كثيرًا»